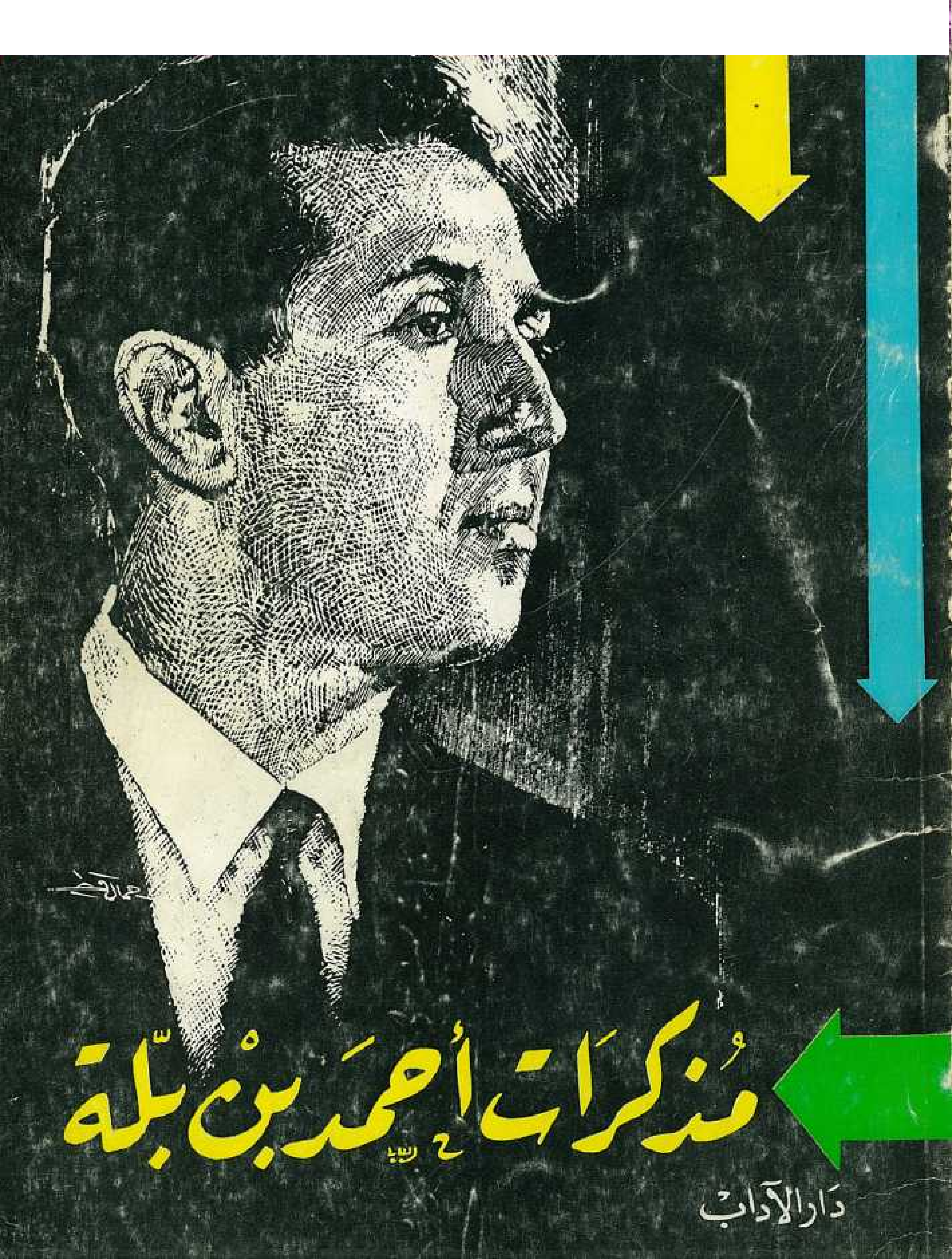

مذكرات أحمد بن بلة
دار الآداب

مُذكرات أحمد بن بلّة

كما أملاها على روبير ميرل

ترجمة العفيف الاخضر

منشورات دار الآداب - بيروت



تمهيد الناشر

في الرابع من تموز ١٩٧٩ ، أفرج عن الرئيس أحمد بن بلة ، بعد أن قضى أربعة عشر عاما في السجن من غير محاكمة ، وقد تم الافراج عنه بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لاستقلال الجزائر بعد بضعة أشهر من وفاة الرئيس الراحل هواري بومدين .



ولد أحمد بن بلة في بلدة مارنيا القريبة من الحدود المغربية عام ١٩١٦ من أبوين فلاحين ، وتلقى تعليمه الاول في مدارس تلمسان الغنية بتراثها وتقاليدها العربية . وبعد أن بلغ الخامسة عشرة من عمره انخرط مع عدد من رفاقه في حزب الشعب الجزائري الذي كان يقوده مصالي الحاج ، وتحول بعد سنوات قليلة الى قطب رئيسي فيه ، وبعد خلاف مع مصالي الحاج حول ضرورة البدء بالكفاح المسلح ، قاد بن بلة مع تسعة من رفاقه انشقاقا داخل حزب الشعب ، وشكلوا حزب الوحدة والعمل . وهؤلاء التسعة هم الذين اتخذوا القرار التاريخي ببدء الكفاح المسلح في شهر تشرين الثاني ١٩٥٤ .

وقد برزت زعامة بن بلة للمرة الأولى عـام ١٩٤٩ ، وخاصة بعـد حادث وهران الذي كان عبارة عن هجوم مسلح نظمه بن بلة مع بعض رفاقه للسطو على الأموال المودعة في مركز البريد بالمدينة ، وذلك مـن أجل تسـويل النشاط العسكري للمنظمة ، ولكـن سلطات الاحتلال الفرنسي كشفت بعض خلايا المنظمة ، وألقت القبض عـلى بن بلة وبعض رفاقه بعد حادثة البريد وأدخلته السجن للمـرة الاولى في بليدة القريبة من العاصمة ، وهو السجن ذاته الذي سيدخله فيما بعد ، ولكنه ما لبث أن هرب من السجن عام ١٩٥٢ ، وهو عام الثـورة الناصرية ، واتجه صوب القاهرة .

وفي قاهرة عبد الناصر ، تم وضع اللمسات الأخيرة لثـورة الاول من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٤ الشعبية المسلحة في الجزائر . وحين قرأ بن بلة البيان الاول للثورة أدرك الفرنسيون من هو عدوهم الحقيقي. وفي عام ١٩٥٦ تعرضت مصر للعدوان الثلاثي ، ولم تكـن فرنسا تخفي ان أحد أسباب اشتراكها في العدوان لم يكن فقط اقدام عبد الناصر على تأميم القنال ، بل أيضا الدعم الذي قدمته القاهرة للثـورة الجزائرية . وفي ٢٢ أكتوبر من العام نفسه دخل بن بلة السجـن للمرة الثانية حين أرغمت المقاتلات الفرنسية طائرة مغربية كانت تقله مع ثلاثة زعماء آخرين (بوضيـاف ، آيت أحمـد ، وخيضر) على الهبوط . وتنقل بن بلة من سجن الجزائر العاصمة الى سجن « الصحة » الى سجن جزيرة «ايكس» الى سجن « توركان » ، واستمر في سجون فرنسا أكثر من ست سنوات حتى استقلال الجزائر عـام ١٩٦٢ حين أطلق سراحـه اثر توقيع اتفاقية ايفيان . وبدلا من أن تحجبه هـذه الفترة الطويلة عـن ساحة النضال ، كانت تحوله الى أسطورة شعبيـة عرفت باسم « عميميد » وهو اسمـه الحـركي .

ودخل بن بلة معترك السياسة من أوسع أبوابه • فبعد الأحداث المؤسفة التي جرت بين الحكومة الجزائرية المؤقتة التي كان يرئسها يوسف بن خده في ذلك الحين وبين قيادة جيش التحرير ، تمت الغلبة لفريق بن بلة • وفي العاشر من أيلول ١٩٦٢ دخلت دبابات العقيد هواري بومدين الى العاصمة لتؤمن النصر النهائي لبن بلة على سائر الاطراف • وبعد ذلك بحوالي العام ، أي في ٨ أيلول ١٩٦٣ ، انتخب بن بلة رئيسا لأول جمهورية جزائرية مستقلة بأغلبية ستة ملايين صوت •

وفي الفترة القصيرة التي قضاها على رأس السلطة ، جابه مجموعة لامتناهية من المشاكل المتراكمة منذ سنوات الاحتلال • فقد كانت الادارة معطلة ، والاقتصاد مشلولا ، والمدارس شبه مغلقة ، اذ ان الفرنسيين انسحبوا بشكل جماعي بعد الاستقلال وسحبوا معهم جميع ملاكاتهم ، تاركين البلاد تقلع شوكها بأظافرها •

وقد ظل بن بلة رئيسا للجمهورية مدة ثلاثة أعوام • وفي يوم ١٩ حزيران ١٩٦٥ قرع باب الشقة المتواضعة التي كان يسكنها ، وكانت تعتبر مقرا للمكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني الجزائرية ، وعندما سأل من الطارق ، أجابه هواري بومدين : « افتح يا سي أحمد » •

وظل بن بلة منذ ذلك التاريخ في المعتقل ، تحت الاقامة الجبرية ، حتى أطلق سراحه في الرابع من تموز ١٩٧٩ •

وقد أثار اعتقاله في ذلك الوقت ضجة عالمية كبيرة • فعلى الصعيد العربي تدخل الرئيس عبد الناصر شخصيا لدى بومدين اذ أرسل وفدا برئاسة عبد الحكيم عامر للمطالبة بالافراج عنه ، لكن هواري بومدين رفض الطلب الذي تكرر فيما بعد اثنتي عشرة مرة • وتقول مادلين

فيرون محامية بن بلة ان عبد الناصر شكل فريقا مسلحا للافراج عنه ، الا ان أمره اكتشف في الساعات الاخيرة قبل بدء العملية .

وبعد ذلك تدخل فيدل كاسترو ، وسيكوتوري ، وديغول الذي طلب الى بومدين شخصيا عدم القيام بتصفية بن بلة ، ثم تدخل نيريري وموديبوكيتا الذي طلب الى وزير خارجيته أن يثير قضية اعتقال بن بلة في مؤتمر وزراء خارجية منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في اكرا عام ١٩٦٧ ، لكن عبد العزيز بوتفليقة طلب سحب الموضوع وتعهد كتابة بتمكين أول رئيس افريقي يزور الجزائر من مقابلة بن بلة .

ويقال ان كاسترو قد طلب ذلك في أول زيارة له للعاصمة الجزائرية لكن طلبه قوبل بالرفض .

وظل طلب الافراج عن بن بلة أمل كل القوى التقدمية العربية والعالمية ، ولم تنفع الكثير من الحملات العالمية التي قادتها صديقته ومحاميته (فيرون) بمساندة العديد من الشخصيات الديمقراطية باقناع الرئيس بومدين باطلاق سراحه .

وفي انتظار الحرية أو الموت عاش بن بلة في سجنه . وتقول محاميته انه أمضى الثمانية عشر شهرا الاولى من اعتقاله ينام ببزته العسكرية لأنه كان يتوقع الاعدام بين لحظة وأخرى . وبعد خمس سنوات من اعتقاله تلقى لأول مرة زيارة أمه بسرية مطلقة . ثم انتظمت هذه الزيارة حتى أصبحت دورية كل شهرين .

في سنة ١٩٧١ عرضت الأم على ابنها السجين مشروع الزواج . ويقال ان بن بلة ضحك طويلا وقال لها : أنت تحلمين ، هل هناك من تقبل بالسجن اراديا ؟

ولكن الجزائر الثورة لم تبخل على ابنها وقائدها بمن ترافقه وتشاطره لحظات وحدته وألمه . وكانت تلك الرفيقة هي زهرة سلا ابنة وزير الاقتصاد السابق في حكومته ، وهي صحافية مناضلة في جبهة التحرير الجزائرية .

وتم الزواج في العام ١٩٧١ بعد ست سنوات من تاريخ اعتقاله .

وبعد خمسة أشهر من زواجه توفيت والدته باحتقان رئوي ، وكان السجين ما يزال سجينا .

منذ سنتين صرحت محاميته للعديد من الصحف العالمية ، بأن هناك مؤامرة لتصفية بن بلة بعد أن سرب بعض أقطاب الحكومة الجزائرية نبأ عن ذلك الى الاوساط الرسمية الفرنسية . وعلى اثر ذلك شكلت لجنة عالمية للدفاع عنه برئاسة شفاركس الحائز على جائزة نوبل . وعلى اثر هذه الحملة سمح للرئيس بن بلة باستقبال أصدقائه وبعض أفراد عائلته ، وكان يعيش تحت الاقامة الجبرية والحراسة المشددة ، قريبا من مدينة البليدة على بعد ٤٠ كلم من العاصمة الجزائرية .

الذين زاروا بن بلة في الأشهر الاخيرة يقولون ان الرئيس الجزائري الاسبق كان لا ينقطع عن المطالعة أبدا ، وقد قرأ كثيرا أثناء فترة سجنه ، وتابع باهتمام من خلال الراديو والصحف أنباء الثورة الايرانية .

*

ويسر « دار الآداب » التي أصدرت الطبعة الاولى من مذكرات بن بلة منذ اعتقال الزعيم الجزائري ، أن تعيد اليوم نشر هذه المذكرات بعد اطلاق سراحه .

*

هـــذه المذكرات ، التي نضعها بين يدي القارىء العربي ، تتوهج ـ عكسا لكل المذكرات السياسية ـ بحرارة انسانية ، وبتلقائية شفافة تدخل القلب بغير استئذان ، وبالصدق والدقة في قص وقائع التاريخ ، وبالحب العارم للانسان العربي • انها تكشف بأصالة عـن بن بلة المتمرد منذ صباه على الكذب والمهانة ، وعن بن بلة الثائر الذي لا يهن ولا ينهزم في النضال ضد غربة الانسان في وطنه ، وجوعـه وسط خيرات بلاده ، وعن بن بلة المحرض والمنظم الثوري الذي مرسته تجربة الحرب العالمية الثانية على القيادة والصبر وعلمته الاصرار وعدم التراجع أمام الخطر ، وأخيرا عن بن بلة الانسان الذي مزقت وجـدانه مأساة جماهير الشعب الجزائري التي كانت تحت نظام الاحتلال والاستغلال تجلد في اليـــوم بألف سوط ، وتداس في اليوم بألف قدم • فهب لقيادة نضالها غير هياب وضحى في سبيلها حتى النهاية غير ضنين • ومن أجل ذلك كان أملهـــا الثوري في ميلاد عالم أفضل •

الناشر

١

محامية بن بلة تتكلم ...

المحامية الفرنسية ، مادلين لافي فيرون ، عرفت الرئيس الجزائري السابق احمد بن بلة عن قرب .. وكذلك عن بعد .. في ثلاث مراحل اساسية :

المرحلة الاولى ، منذ ٢٢ سنة ، وبالتحديد في عام ١٩٥٧ ، عندما كان نزيل سجن « لاسانتي » الشهير في باريس .

والمرحلة الثانية ، بعد استقلال الجزائر ، والافراج عن قادة الثورة الجزائرية . وكانت تراه « خفيف الظل وقريبا للقلب ببساطته ورزانته » .

والمرحلة الثالثة تأتي بعد انقلاب ١٩٦٥ ، وغياب احمد بن بلة عن الساحة السياسية . حتى اليوم والمحامية تتبع أحواله والظروف المحيطة به . وخلال السنوات الماضية بذلت جهودا كبيرة سعيا لاطلاق سراحه . وعبثا ضاعت جهودها كما ضاعت جهود عظماء ورؤساء دول . فقد كان الصوت الرسمي يأتي دائما : « انسوا بن بلة » .

ثم لجأت بعد ذلك للرأي العام الدولي . فجمعت مئات وآلافا من التواقيع التي كانت تطالب بالافراج عن بن بلة ، كما طالبت الهيئات الدولية والمؤسسات العمومية بهذا في مناسبات مختلفة .

قالت مادلين لافي فيرون في لقاء معها :

ــ في عام ١٩٥٧ كان لي اللقاء الاول مع السيد احمد بن بلة في سجن « لاسانتي » بباريس ، بعد أن رشحني مع بعض المساجين الجزائريين للدفاع عن حقوقهم وقضيتهم .

استقبلني بحرارة . وكان حذرا في علاقته معي . ولـم استطع ان أكسب صداقته الا بعد مدة طويلة من الزمن . لانني كنت فرنسية . وكان انطباعي الاول عن شخصيته بأنـــــه رزين ومتزن وبسيط وعلاقاته مـع الآخرين مباشرة . وكان واضحا انه اقوى شخصية بين رفاقه . وكـــان خفيف الظل وقريبا للقلب .

وتفتح مادلين ملف احمد ، عندما كان سجينا ، وتشير الى صوره وتقول :

ـ سجن « لاسانتي » من أقسى السجون الفرنسية . فلكل سجين زنزانة . واللقاء يتم في قاعة كبيرة مع المساجين في وقت محدد من كل يوم ... في ايام رمضان ، كانوا يفضلون طهي طعامهم بأنفسهم . فحصلت لهم على بعض الادوات البسيطة لطهي بعض الاشياء الخفيفة . وكان محمد خيضر (الذي اغتيل بمدريد) يجيد طهي « الشوربا » وبعض المأكـولات الجزائرية .

اما بن بلة فكان يحب النقاش والرياضة ، ويهوى لعبة كرة اليــد ، وكثيرا ما كان يلعبها مع رفاقه ... ويحب كثيرا لبس الاحذية الرياضية الخفيفـــة .

وكانت له علاقات انسانية طيبة مع المساجين الآخرين . كان عاديا وبسيطا جدا ، وهو انسان مؤمن ، كثيرا ما رايته يصلي . ولكنـــه ليس ذا قناعات ميتافيزيقية بل يؤمن بالاشتراكية . وكـان مهتما كثيرا بالمنهج الماركسي كنظرية للتحليل الاجتماعي .

وتمضي المحامية الفرنسية في ذكرياتها :

ـ في احد ايام عام ١٩٦٠ في لقاء مع بن بلة وخيضر وآيت احمـد والاشرف ، بدا النقاش عند الظهر وامتد حتى وقت متأخر مـــن الليل . وكان محور تلك الحوارات الثـــــورة الجزائرية وعلاقاتها بمصر الناصرية والبلاد العربية الاخرى ، كالمغرب وتونس والسعودية .

وكان راي بن بلة ان الحركة الثورية فـي العالم الثالث وحدة يجب أن تتكامل وان تحارب فكرة الاقليمية . ولاحظت ان الاشرف كـــان قليل الحديث في تلك اللقاءات . ولكني لم الاحظ في تلك الفترة اي اختـلاف سياسي بينهم . وكانوا حتى على مستوى علاقاتهم كأشخاص منسجمين .

ـ وما هي ذكرياتك عن بن بلة ، بعد السجن الفرنسي ؟

ــ عرفت بالخصوص بن بلة في فترة حكمه . لم يتغير أي شيء في علاقاته مع الآخرين . في عام ١٩٦٣ حضرت الى الجزائر ، والتقيته عدة مرات ، وكان رائعا في حواره مع اطفالي . فقد خصص من وقته الثمين ما يكفي ليحدثهم عن الثورة الجزائرية وتاريخ الشعب الجزائري الذي عرف أبشع ظروف الاستعمار .

وتكشف المحامية الفرنسية النقاب عن لقاء سري بين بن بلة والرئيس الفرنسي الراحل ديغول . فقد بادر بن بلة في عام ١٩٦٤ لزيارة باريس بصفة سرية لمدة ثلاث ساعات واجتمع بالجنرال ديغول في قصر البساتين .

وقال لي بن بلة انه ناقش مع الجنرال ديغول العلاقات الثنائية والمصالح المشتركة بين البلدين . وقد طرح عليه الرئيس الفرنسي عدة اسئلة بخصوص جمال عبد الناصر وأحمد سيكوتوري وبعض قادة العالم الثالث الذين كانوا أصدقاء للثورة الجزائرية . وكانت نتائج ذلك اللقاء جيدة بالنسبة للطرفين .

وتمضي مادلين في حديثها :

ــ بن بلة كان تجربة فريدة في العالم الثالث ، فهو الوحيد الذي كان يؤمن في قارة افريقيا وأماكن أخرى بأن وحدة الحركة الثورية هي مسؤولة عن جميع المضطهدين . ولهذا عرض على شخصيات عربية مناصب وزارية مهمة ، فيهم من قبلها ، وفيهم من احتفظ بمناصب استشارية مهمة . كما عرض على الثائر في أميركا اللاتينية تشي غيفارا الاشراف على الاقتصاد الجزائري ، بعد استقالته من الوزارة في كوبا .

ــ وأين رايت بن بلة للمرة الاخيرة ؟

ــ في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٩٦٥ مع الرئيس احمد سيكوتوري ، الذي كان في زيارة رسمية للجزائر . وبعد الاطاحة به ، وبالتحديد في أول تموز (يوليو) ذهبت الى الجزائر مع بعض الاصدقاء ، وحاولت ان اعرف اخباره ، هل هو حي ام ميت ؟ وقابلت امه التي كانت لا تكف عن البكاء . طلبنا من السلطات الجزائرية ان تسمح لنا بمقابلته ، او على الاقل ان تسجل لنا صوته لتبديد القلق . وبالطبع خرجنا بلا شيء .

وبادرت الى تكوين لجنة دولية للدفاع عن احمد بن بلة . والدته انتظرت ثمانية أشهر لترى ابنها . وتقول ان أحمد بقي ثمانية عشر شهرا

وهو بزنزانته العسكرية ينتظر كل لحظة زوار الفجر لينفذوا فيه حكم الاعدام. لقد عاش هذا الزعيم حالات نفسية رهيبة تفوق حدود التصور والخيال .

ـ ما هي المعلومات التي توفرت لديك عن سجن بن بلة وأوضاعه ؟

ـ المعلومات التي وصلتني عن طريق الاصدقاء وزوجته وامه ، كانت تؤكد على أن بن بلة موجود في مكان يسمى بئر التوتة ، بين الجزائر العاصمة ومدينة البليدة (تبعد عن الجزائر بـ ٤٠ كلم) . وهذه المنطقة كانت تقع تحت نفوذ العقيد عبد الله بلهوشات الذي يرجع له فضل حماية بن بلة من القتل .

وكانت الحراسة المضروبة من الخارج عليه تتكون من ٤٥٠ شخصاً من بينهم الجيش وافراد من المخابرات العسكرية . بينما زرع مسكنه بوسائل التقاط الصوت والصورة . وزوجته كانت تتعرض في كل دخول وخروج لسجن زوجها الى تفتيش دقيق . وانا اقدر كثيرا جراة وشجاعة هذه الجزائرية التي ضحت وقبلت السجن الارادي ، من أجل احد قادة الثورة الجزائرية .

ـ وبماذا كان يهتم بن بلة في سجنه ؟

ـ بن بلة بقي قريبا جدا من العالم وبالخصوص العالم الثالث . وهذا واضح من نوعية الكتب التي يطلبها مني ، عن طريق زوجته . فهي تدور حول الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية في العالم الثالث، وكذلك بعض الكتب التي تتحدث عن الفن المعماري والحضارات ، فاهتماماته كأي مثقف متابع . وآخر كتاب بعثته له هو «العرب» لمكسيم رودنسون . وحدثني زوجته بأنه معجب بكتاب « السلم الابيض » الذي يتحدث عن هنود أميركا اللاتينية .

أما القضايا التي تشغله ، فتأتي القضية الفلسطينية في مقدمتها ، وهو يتابعها عن طريق الصحف والاذاعة والتلفزيون وبعض الكتب والدراسات . ويقولون انه مستاء جدا من اتفاقية كامب ديفيد .

ـ ماذا يقول بن بلة عن الخلاف الذي كان بينه وبين بومدين والذي أدى الى الاطاحة به ؟

ـ التهمة التي وجهت الى بن بلة هي « احتكار السلطة والحكم الفردي » ، ولكن الخلاف الحقيقي كان حول الميليشيا التي انشأها بن بلة

وكانت تضم عددا كبيرا يوازي جيش الثكنات . وهذا ما اقلق وزير الدفاع هواري بومدين وجعله يتخوف من نفوذ تلك الميليشيات الشعبية المسلحة ، وكذلك تعيين الطاهر الزبيري رئيسا للاركان دون الاخذ براي بومدين . وزيادة على هذا فان بن بلة كان يشكك في نوايا بوتفليقة ويريد التخلص منه . هذا بعض ما يقوله الذين راوا بن بلة ، ويؤكدون ان نقطة ضعفه هي ثقته المطلقة بالرجال المحيطين به .

ـ من هم الذين توسطوا لاطلاق سراحه ؟

ـ الكثير من القادة البارزين ، منهم الجنرال ديغول وجمال عبد الناصر الذي كان يكن ودا حميما لبن بلة ، وفيديل كاسترو الذي كان يلح في كل لقاء مع بومدين على اطلاق سراحه ، ولكن هذا الاخير كان يعرض الافراج عنه بشروط لم يقبل بها السجين .

واليوم اعتقد بأن اشياء تغيرت . فالرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ينهج خطا سياسيا يبعث على الامل في تحقيق وافساح مجال واسع للديمقراطية في الجزائر .

ـ ما هو الوضع الصحي والنفسي لبن بلة اليوم ؟

ـ احمد بن بلة في صحة جيدة ، ويتمتع بمعنويات مرتفعة ، رغم انه أقدم معتقل سياسي في العالم .

ـ وهل سيعود بن بلة الى الميدان السياسي بعد الافراج عنه ؟

ـ لا استطيع ان أجيب على هذا السؤال . ولكن كل ما أعرفه انه انسان حيوي ونشيط ، وليس من النوع الانطوائي الذي يصبو الى الانزواء ويخاف من قول كلمة الحق .



مدخل



التقيت بالرئيس بن بلـّه [1] في شهر فبراير (شباط) ١٩٦٣ بمركز تثقيف وإيواء الأطفال ماسحي الأحذية [2] بسيدي فرج [3] . وكان الأطفال ماسحو الأحذية قد وصلوا قبل لحظات على ظهر حافلة الى المركز. وكنت أنا وزوجتي مع المدربين نتتبـع ، من الدوش الى ملبس الثياب الجديدة ، ومن الملبس الى المَضْجِـع ، تحول الأطفال القذرين والبؤساء الى أطفال صغار نظيفين، يرتدون ملابس زرقاء مُدفئة، وما زلت أذكر دخولهم الى المضجع الجديد ذي الأسرّة البيضاء . لقد كان ذلك بالنسبة لهم نوعاً من المفاجأة الصارمة . وكان المدربون

---

(١) شاعت في المشرق العربي كتابته : بن بيلا . وهو نقل حرفي عن الطريقة الفرنسية في كتابته ، والصواب : بن بلـّه . ـ المترجم ـ

(٢) بعد نحو خمسة شهور من تقلـّد السلطة الثورية قرر بن بلـّه تجميع كل الاطفال ماسحي الاحذية بمراكز تثقيف واعطاء عائلة كل واحد منهم تعويضاً بـ ١٥ الف فرنك فرنسية قديمة . وفي مظاهرة شعبية لا تنسى ، حضرها بن بلـّه بنفسه ، أضرم ماسحو الاحذية القدامى ، النار في عُلـَبِ وأدوات هذا العمل المهين . وكثير منهم يدرسون اليوم في المعاهد الثانوية الصناعية . ـ المترجم ـ

(٣) سيدي فرج خليج صغير وشاطىء سباحة واصطياف جميل يقع غربي العاصمة ومنه احتل القراصنة الفرنسيون بقيادة الجنرال بورمون Bourmont مدينة الجزائر صبيحة يوم ٥ تموز (جوليه) ١٨٣٠ . وقد سجل شاعر جزائري مجهول هذه الحادثة المشؤومة في ٣٠٠ بيت من الشعر الشعبي تروي ببراعة لحظة فلحظة تفاصيل ووقائع هذا الاحتلال من الخليج حتى العاصمة وردود فعـل السكان . ـ المترجم ـ

يدفعونهم الى الدخول قائلين للواحد منهم : « تقدم ، لا تخف ، هنا ستنام ».
ولم يجرؤ ماسحو الأحـــذية على الجلوس على الأسرّة ، ولا حتى على
الاقتراب منها .

كان ذلك في شهر رمضان ولهذا وجب انتظار الافطار لادخال الأطفال
الى مطعم المركز . وفي وسط كل طاولة كانت هناك صحفة من الشورباءالساخنة
المعطرة بالأفاويه . وحولها كان الأطفال جالسين في صمت ، وعيونهم السوداء
مركزة على الصحاف بشكل ينطق بالرغبة العارمة في الأكل . وكان ماسحو
الأحذية القدامى ينتظرون الاكل . وفي هذه اللحظة وصل بن بلـّه يرافقه
بو مدين وبو معزة في ركب من السيارات السوداء كانت تتقدمه الدراجات النارية .
واختلط الوزراء بشرطة الدراجات ، واحدث ذلك في المطعم حركة بهيجة
ودائبه ، لأن قدومهم صادف حلول المغرب . وكانت الضيافة توجب ان يقدم
اليهم فوراً البسكوت والفاكهة . ومـــا زالت استحضر السوْرة السعيدة
والجائعة التي اندفع بها شرطيو الدراجات ، بعـد ان تخلصوا من خوذاتهم ،
لالتهام الطعام البسيط الذي قدم اليهم . وخيل الي ان في الصيام ، اذا فهمناه
على هذا النحو ، لذة سليمة وفائقة . لانه اذا كان كل شيء ممنوعاً بالنهار :
الشرب والاكل ، والتدخين والحب ، فان كل شيء يصبح مباحاً بالليـــل .
وهكذا فان النهار يقضى في تخيل وشحذ الرغاب المستوفزه التي يحيلها الليل
وحده الى رغاب شرعية .

وفي هذا اللغط البهيج كان الصائمون قد انهمكوا في الافطار بعد يوم صعب.
وقد نسوا الى حد ما ماسحي الاحذية الصغار ، الذين كانوا جالسين بدون
حراك حول حسائهم ، وصحونهم امامهم فارغـة ؛ فتقدمت منهم، وبمساعدة
زوجتي بدأت اخدمهم.وفي هذه اللحظة رآني بن بلـّه وبسرعة مشى نحوي.

وقدمت له نفسي . وسمعت منه كلمات لطيفة تخص آثاري الادبية ، واضاف ضاحكا : « ظننت انك سفير لدولة اجنبية... لان هذا ما يحدث لي كل يوم. وامضي وقتي في استقبالهم.» وهنا اخذ يحدثني عن صغار ماسحي الاحذية . وقد تأثرت لصدقه وتواضع لهجته. وقال لي انه لا يتعلق باذيال الوهم بخصوص اهمية التجربة . وانه يرى ان الحل الدائم شيء آخر . وكان يردد : «انها ليست الا بداية ، بداية جد صغيرة . لكننا سنواصل . »

وبعد عدة شهور من هذا اللقاء استدعاني للغداء على مائدته بفيلا جولي بمعية صديق جزائري .

ابداً لم يسكن رئيس دولة في شقة متواضعة مثلما فعل بن بلّه[1] . ربما باستثناء فيديل كاسترو بـ «لا هافانا»الذي كانت له رفاهية وحيدة هي الشرفة التي ينفتح عليها الاستوديو الصغير الذي يسكن فيه، والتي نَضّد عليها بعض ادوات الرياضة البدنية ، وسلة للباسكات .

وقد كانت محادثتي مع بن بلّه طويلة ، ومحتدّة ، ومفيدة. لقد تحدثنا طويلا عن كوبا التي كنت قد عدت منها حديثا . وصداقة بن بلّه لكاسترو صداقة حميمية . وقد اندهشت ، وانا استمع اليه ، انه هو ايضاً يفكر بتطور بلاده على نحو عملي ، pragmatique . وبكل وضوح فالجيل الثاني من الزعماء الثوريين الكبار لا يُشابه الجيل الاول : انه يهتم قليلا جداً لمسألة المذهب .

---

(١) اذكر انه في بداية عام ٦٣ عندما زار لاول مرة مدير جريدة الاكسبريس الفرنسية شقة بن بلّه التي تشتمل على غرفتين وستة كراسي وبدون تأثيث اندهش فقال لهبن بله بصراحة الفلاح الجزائري : « عندما تسمع اننا انتقلنا الى القصور فاعلم اننا خنّا شعبنا » المترجم

وقد اثار بن بلـّه ايضاً ، في هذه المحادثة، بعض ذكريات حياته في الجيش الفرنسي ، اثناء حملة ايطاليا . وقــد بدا لي ، وانا استمع اليه، اننا كنا نعرف شيئاً قليلا عن رجل ُدعي ، بفضل شخصيته وبفضل صموده ، ليصير اعظم رئيس دولة افريقي وبالتأكيد احد زعماء العالم الثالث . وبعد هنيهة طلبت منه ما اذا كان يوافق ، عند الاقتضاء ، ان يقص عليّ تاريخ حياته ، فقبل .

وبعد شهور من هــذه المحادثة، في ربيع ١٩٦٤ ، دعاني بن بله. واتفقنا على تسجيل محادثاتنا على آلة تسجيل Magnétophone لكي لا اتجشم عناء تسجيلها بالقلم . وقد عقدنا خمس عشرة جلسة كانت كل واحدة منها تدوم ساعتين او ثلاثاً. وكان خلال هذه الجلسات جميعها هادئاً ومبتسما، من غير شعور بالاكراه وبلا نفاد صبر . ولم يحاول بن بله مرة واحدة ان ينهي بنفسه هذه الجلسات. وبتأدب فلاحيِ ّ صادق كان في كل مرة يترك لي المبادرة . وكانت تسجيلاته في البداية بالغة الصعوبة . لان مخاطبي كانت له عادة حيّرتني قبل ان افهم مصدرها : فهو ، مثل جميع الناس الذين قضوا جزءاً كبيراً من حياتهــم في النضال السري، لم يكن أبداً يذكر اي اسم او اي تاريخ .

وكان لا يريد ان يبوح بأشياء ، هذه المرة عن قَصْدٍ . وذات مرة شرح لي السبب في انه لم يكن يرغب في الخوض في مسائل داخلية تهم حكومته . ولم يكن يرغب ايضاً في أن يقول شيئاً بخصوص نزاعـــاته مع المغرب ولا بخصوص التمرد بجهة القبائل . لأنه كان يرغب في كلتا الحالتين في التوصل الى وفاق . وفي الفصل الاخير من سيرته الذاتية لم يكن بن بلـّه يرى بعين الرضى كل مظاهر السياسة الجزائرية من ١٩٦٢ الى ١٩٦٥ ، ولكن التجربة الاكثر أهمية والاكثر أصالة لحكومته ، التي هي التسيير الذاتي ، كانت بكل تأكيد تحظى بكل حماسه وبكل اهتمامه .

عندما كنت أسجل منه هذه المقابلات كان عمره ٤٦ سنة . وكان في صحة موفورة. وكان يبدو أصغر مما هو في الواقع: طويل،ذو جسم رياضي ، بدين بعض الشيء ، مشرق المحيّا . إن فيه ــ بالأخص في ابتسامته وفي طيبة نظراته ــ شيئاً من الطفولة ومن الاطمئنان اللذين لا ينتظر المرء ان يجدهما لدى رئيس دولة ، وفي الوقت نفسه كنت أشعر ان عند بن بلـّه الشجاعة والاعتزاز الطبيعي وصراحة الفلاح العنيفة . انه يتحدث الفرنسية بطلاقة فائقة عدا بعض العثرات ولهجته النابية بعض الشيء ، ولكن ايضاً يتحدثها بنكهة ودقة لم يعد لها أثر عند المثقفين من أبناء بلاده الأكثر تضلعاً. لم يمض بن بلـّه في دراسته الى اكثر من الشهادة الاعدادية BREVET .

وهو الى حد كبير رجل عصامي [1] . ولكنه تعلم في النضال السياسي ، اكثر مما تعلم في الكتب . انه ذكي ، متفتح ، مسلم ولكن بدون تعصب . شديد العروبة ولكن بدون بغض للاجانب ، هـذا البغض الذي يسود اليوم في الأوساط الحاكمة بالجزائر [2] . وعند بن بلـّه يلمس المرء عاطفة انسانية

---

(١) لم يتعلم بن بلـّه في المدرسة إلا فك الحروف العربية . ولكن في غمار مهام اضطلاعه بالسلطة الثورية حيث ـ كما يعرف ذلك كل الناس ـ لم يكن ينام إلا ٤ ساعات في الـ ٢٤ ساعة كان يداوم بحماس لا يضاهيه الا حماسه للعروبة وقضاياها على تعلم اللغة العربية . وحقق فيها تقدماً مرموقاً لم تتماسك صحيفة ـ جون افريك ـ ان تندهش للسرعة التي تم بها . وفي مدة قصيرة اصبح يستطيع ان يخطب لعدة ساعات بعربية مضبوطه وسليمة . ـ المترجم ـ

(٢) هذا البغض للأجانب ذو ألوان ، لأنه يسلط في نفس الوقت على المدرسين المصريين الذين وصفوا بأنهم « غير اكفاء » وعلى الاطبــاء البلغاريين المخلصين الذين يعتبرون اليوم بأنهم : « لا يصلحون لشيء غير مهنة التمريض » وعلى شاب فرنسي مسالم اعتقل اخيراً وسط ضجيج دعائي ووصف بأنه رئيس عصابة في المعارضة . ولكن بغض الاجانب عند الحكام الجــدد لا يستبعد ابداً ربط العلاقات التجارية مع الشركات الصناعية في المانيا الغربية .

ـ روبير ميرل ـ

رائعة . واذا لم يكن قد اغتيل [1] ليـــلة ١٩ جوان (حزيران) واذا قدمته الحكومة الحالية الى المحاكمة – التي لا تفتأ تعلن عنها وترجئها باستمرار – فانه سيكون من الصعب جداً ان يتهم بأنه أراق الدم الجزائري .

وفي ظل حكمه لم يحدث ان نفذ حكم الاعدام في أحد باستثناء العقيـد شعباني ، الذي لا يمكن الدفاع عنه ، والذي تمقته بعمق الجماهير الشعبية التي كانت عصاباته تشيع بينها الرعب .

لقد لعب بن بلـّه دوراً عظيما في التحضير لاندلاع الثورة الجزائرية . وهو يستأهل ، بدون مراء ممكن ، لقب « الرئيس التاريخي» . وقد اضطلع اثناء الثورة المسلحة بمهام حربية خطيرة، وقد كانت ولايات جيش التحرير اول من تضرر من أسره في حادثة اختطاف الطائرة . وقلما كان احد بعده يهتم، وسط البذخ الخارجي للحكومة المؤقتة ، مثلمـا اهتم هو بمحاربي الداخل . وبعد الاستقلال ، رغم بعض الترددات وبثمن بعض الاخطاء ، فانه طبق بكثير من الاخلاص برنامج طرابلس ، وحارب مضاربات البورجوازية الجزائريـة وأطماعها . واقام في الجزائر اشتراكية زراعية ، وبمواقفه الواضحة التي لا مكان فيها للحلول الوسطى فيما يتعلق بالقضايا الافريقيـة ،فانه استطاع ان يمنح بلاده ، في امد قصير هيبة أممية كبرى .

ان انقلاب ١٩ جوان– حزيران – بمواكب تجنّيه ومسارماته وايقافاته ، وحَصد المتظاهرين بالرصاص في الطريق العام [2] ، وتعذيبه السري، وتنفيذه

---

(١) عند ما كتب روبيرميرل هذه المقدمة لم يكن قد عرف ان بن بلـّه ما يزال حياً .

(٢) ذكرت جريدة « Le Monde » في عدد لها صادر في شهر آب ١٩٦٥ وسمحت له الحكومة الانقلابية بالرواج في الجزائر ان عدد المتظاهرين الذين حصدوا بالرصاص يوم ١٩ جوان ←

لاحكام بدون محاكمة، بدا لي منذ اول يوم انقلاباً ثكنياً CUARTELAZO من طراز اميركي جنوبي خالص . وبهذا الصدد ، انه لعلامة لا تخطىء ، ان حكومة العسكريين التي استولت على السلطة بقوة السيف لم تتكلم في اي لحظة عن ترك الكلمة الاخيرة للشعب الجزائري بالتجائها التنظيم استفتاء شعبي . ورغم اتساع الوسائل البوليسية التي تتصرف فيها ، ورغم التقاليد الاستعمارية لتزوير الانتخابات في الجزائر ، فان المتآمرين لم يجرؤوا على دعوة الجماهير الى صناديق الاقتراع ليطلبوا منها إسباغ الشرعية على اعمالهم . لقد شعروا بأن ارجاع بعض الاملاك المسيرة ذاتياً الى المالكين السابقين ، والتخريب الخفي للتسيير الذاتي بعدم دفع الاجور لعماله ، لم يترك لهم الا قليلاً جداً من الحظوظ للفوز في استفتاء شعبي صريح .

ومن جهة اخرى فان موقفهم يُلقي ظلالا من الشك المريب على مصير بن بلـّه لقد اعتقدت بعد ١٩ جوان مباشرة ان بن بلـّه قد ذبح في ليلة الانقلاب نفسها : وهذه الجريمة كانت تبدو لي من منطق الانقلاب الثكني ومنطق الذين حضّروه . منذ ذلك الحين والمسؤولون ، رغم انهم واصلوا التحدث عن بن بله، علناً، على نحو حقود، يؤكدون مراراً بأنه مازال حياً. ولقد تأثرت بهذه التأكيدات من غير ان اكون مقتنعاً بها تماماً : فاذا كان بن بلـّه حياً، فلماذا ، منذ ١٩ جوان لم يقبلوا بان يراه شاهد لا طعن فيه : ديبلوماسي عربي او رجل قضاء اوروبي مثلا ؟ وانه لمن اليسير على المسؤولين بان ينجوا مرة والى

← هو كما يلي : ١ في سكيكده و ٢ في تبسه و ٩ في وهران و ٤٠ في عنابه . وان كنا نعرف بما لا يدع مجالاً للشك ان عدد شهداء ذلك اليوم المشؤوم كان على الاقل ضعف ما ذكرته الصحيفة الفرنسية ، في فصلها الذي كالت فيه المديح للنظام الجديد، بالاخص في عنابه التي ظلت جدرانها اياماً مرشوشة بالدم . - المترجم -

الابد من الاتهام الشنيع : بانهم مثل تشومبي طلبوا الشهرة عن طريق اغتيال خصمهم .

اذا افترضنا ان بن بله قد قتل ليلة ١٩ جوان ، فانه من اليسير جداً ان نتصور بان المتآمرين ، تجاه عنف رد الفعل الشعبي ، قد فضلوا عدم اعلان موته فورياً ، وبانهم ارجأوا ذلك الى اللحظة التي يكون فيها حكمهم اكثر تمركزاً والخواطر اكثر هدوءاً . واسطورة « أسر » بن بلّه قد لا تكون والحالة هذه الا مجرد تلفيق ينسجونه بالبلاغات المتعاقبة والندوات الصحفية ، وبالاسرار الزائفة التي تعطي للصحفيين الى اليوم الذي تصبح فيه الحكومة ثابتة . ويومئذ تحيط العالم علماً بأن بن بلّه قد مات مريضاً في زنزانته ، او بأنه انتحر فيها ، او انه جُرح جرحاً مميتاً اثناء محاولة فرار ...

ومهما يكن من شيء فان السر يجب ان يرتفع ان عاجلاً وان آجلاً . وارغب من صميم القلب ان يكون الافتراض الذي تحدثت عنه مخطئاً . وآمل ، بدون ان اعتقد تماماً ، أن يكون بن بلّه حياً وبأن يحاكمه خصومه علانية حيث يستطيع ان يطعن لدى محكمة التاريخ ولدى الشعب الجزائري في حكم قضاته .

اريد اخيراً ان اقول كلمة حول الطريقة التي ارتأيت بها هذه السيرة الذاتية . لقد رويت هذه القصة بضمير المتكلم حتى احتفظ لها بالحيوية ، والحرارة . وايضاً بأصالة الرجل الذي روى لي حياته . ولكن ما هو طبيعي ، أن الاسلوب الأدبي وشكل الصياغة هما من صنعي . وبالنسبة لي كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي استطيع بها ان ادخل نظاماً ووضوحاً وانسياقاً في

هذه المحادثات التي كانت بالضرورة متقطعة . واذا كنت سمحت لنفسي بحرية التحرير والاسلوب ، فانني بقيت وفياً بعمق لروح النموذج الاصلي . اذا كان بن بلـّه حياً، واذا ُسمح له بقراءة هـــذا الكتاب – وذلك ما أشك فيه – فاني لا أخشى أبداً ان ينكر من أمر هذا الكتاب شيئاً . واذا كان قد مات فان الشريط الذي سجلت عليه محادثاتنا التي أعيدت في اكثر من نظير، محفوظ في أمكنة أمينة ، يظل الكفيل بصدق ما سجلت في هذا الكتاب .

روبير ميرل



الفصل الاول

مَغْنِيّة



وُلِدتُ يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٨ بـ «مغنية» . ومغنية هي قرية صغيرة في جهة وهران ، جد قريبة من الحدود المغربية . كان أبي فلاحاً . وكان يملك قطعة ارض صغيرة مساحتها ثلاثون هكتاراً على بعد ٣٠ كلم من مغنيـــة . ولكن الارض كانت فقيرة ، وليس بها ماء . وكان أبي يحصل على موارد عيشنا من تجارة صغيرة بمغنية حيث كنا نسكن .

لي أربعـة اخوة . الأخ الاكبر عمر شارك في حرب ١٤ – ١٨ بكتيبة المدفعية الجزائرية ، وجرح جرحاً خطيراً في الجبهـة ، فأعيد لأرض الوطن ومات في تلمسان متأثراً بجراحه . والثاني اسمه عبدالقادر ، ولكننا نناديه تَحَبُّباً قويدر ، مات مرَضاً بمغنية . والثالث يدعى رحال كان يعمل بشمال فرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية وهناك تزوج . ولكن في سنة ١٩٤٠ اختفى . وكل التفتيشات عنه لم تُجدِ نفعاً . واعتقد انه قتل خلال الهجرة الجماعية اثناء الحرب .

وأخي الرابع يدعى وسّيني ، على اسم ولي من أولياء جهـــة مغنية ، سيدي محمد وسّيني. في عام ١٩٣٩ دعي للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي،

وفيه أصيب بالسل ، ومات في العام نفسه . وكذلك في هذه السنة نفسهـــا توفي والدي بمغنية .

وإذن ، فمن الرجال بعائلتي أنا الرجل الوحيد الباقي على قيد الحيـــاة . ولي شقيقتان صغراهما هِبَة تزوجت من امام اسمــه الشيخ ميمون ، وعندما التحقت بالنضال السري اعتقله البوليس الفرنسي ورماه بالسجن حيث قضى اربعة عشر عاماً .

ووالدتي ما تزال بقيد الحيـــاة . وهي عجوز هرمة ولكنها لا تعرف بالضبط سنّها . ففي آخر القرن التاسع عشر كان تسجيل الولادات بقيـــد النفوس محل تهاون عظيم على الأقل اذا كان الأمر يتعلق بـ « ليزانديجان [1]» . وفي المرة الأخيرة ، عندما زارتني والدتي هنا بفيلا جولي قلت لها : « حاولي أن تتذكري متى ولدتِ » ، فأجابت: « اسمع يا ابني ، أعتقد ان عمري كان ١١ عاماً عندما مات مولاي الحسن ، والد محمد الخامس » . وبمــا اننا نعيش في مغنية على مرمى البصر من الحدود المغربية فان كل ما كان يقع في المغرب كان يجد في نفوسنا رجع صدى كبيراً . واذا كانت ذاكرتهـــا دقيقة فان والدتي يكون عمرها الآن ستة وثمانين عاماً .

في طفولتي بمغنية لم أشعر ، كما شعرت في تلمسان فيما بعد ، بالفرق بين الفرنسيين والجزائريين . كان الاوروبيون حفنة من الكولون (المعمرّين) في اكثريتهم . وكان هناك كثير من الاسرائليين . والمجموعات الثـــلاثة كانت تتعايش في سلام . مثلاً في مغنية كان اليهود والفرنسيون والجزائريون لا

---

(١) لانديجان او المواطن الاهلي : كلمة احتقارية كانت تطلقها الطبقة الاستعمارية على سكان الجزائر . وهي تعني في مفهوم هذه الطبقة مرحلة وسطاً بين الانسان والحيوان . ـ المترجم ـ

يشكلون إلا فرقة واحدة لكرة القدم . والتلازم المستمر في داخل هـــذه الفرقة الوحيدة دعم صداقتنا .

في مدرسة مغنيـــة ، على ما اذكر ، لم يكن هناك أي تميز عنصري . ومـــا زلت احتفظ بذكرى طيبـة للمدرستين اللتين علمتـــاني القراءة والكتابة بالفرنسية . كانتا امرأتين جديرتين بالإعجاب وكانتا تعيشان فقط لمهنة التدريس احداهما كانت من أصل كورسيكي وتدعى انتوني. ولم استطع التوصل لمعرفة اسم الثانية. والاثنتان على ما اعتقد قد فضلتا البقاء في وهران بعد الاستقلال .

كان مدير المدرسة يرعبنا . وكنا نمتلىء خوفاً من مجرد تقطيب حاجبيه . وبمـا ان لحيته كانت غير حليقة ، فقد كنا نظن انه من الطبيعي تماماً ان ندعوه : ابو لحية . وفكرة كونه ولِد بدون لحية ، ومن اب أمرد او فقط ذي شاربين لم تُخالط عقولنا تماماً... هذا الرجل المخيف كان له مفهوم دقيق للطاعة . ولكنه كان ايضاً الطيبة بعينها . وكان مـع تلاميذه – جزائريين وفرنسيين – منصفاً .

عندما آن اوان الشهادة الابتدائية اضطر أبي لتزوير بطاقة ولادتي وان يزيد لي في عمري عامين . لأني كنت جد صغير للتقدم لامتحان الشهادة. وفي قريتنا لم تكن التزويرات من هذا النوع تطرح اي مشكل لان اي احد ، كما دكرت ، لم يكن يعير اهتماماً للحالة المدنيـــة (قيد النفوس) بالنسبـة لـ «ليزانديجان» ولكن تغيير تاريخ ولادتي كانت له نتائج بعيدة . فقد دعيت للخدمة العسكرية سنة ١٩٣٧ بدلاً من سنة ١٩٣٩ . لا شيء اكثر لدَداً من خطأ اداري فحتى الآن يتفق لي احياناً ان اقرأ في التراجم الوجيزة عن حياتي والصادرة عن حكومتي انني ولدت سنة ١٩١٦ .

ولما نجحت في الشهادة الابتدائية ، تقرر ان اذهب الى المدينة لمواصلة دراستي . وفي تلمسان تكرم صديق لوالدي ان يستضيفني كامل المدة اللازمة للحصول على البروفيه . كان عمري احد عشر عاماً . ولم اكن قد غادرت قريتي ولا عائلتي ابداً . وبالنسبة اليّ انا ابن الفلاح ، كان الذهاب الى المدينة للدراسة مغامرة كبرى .

ولكن سروري لم يدم . ذلك ان العلاقات بين مجموعات المتساكنين في تلمسان لم يكن لها هذه الطيبة السطحية التي كانت موجودة في القرية التي كانت تخفي حقائق الاشياء . في تلمسان كان التصدع بين عالم الاوروبيين وعالم الجزائريين واضحاً . والتمييز العنصري حتى في المدرسة كان كالشمس في رائعة النهار. لقد شعرت في تلمسان لأول مرة أني انتمي الى مجموعة من الناس يعتبرها الاوروبيون منحطة . ولأول مرة فهمت انني اجنبي في بلادي .

اعتقد اني كنت في الرابعة عشرة عندما حصل حادث في المدرسة التكميلية كان له في نفسي اثر عميق . ذلك انه كان لنا مدرس يدعى بن افيديس « Ben Avidès » ويحتفظ بهذا الاسم العربي من اصله الاسباني البعيد. ولكنه كان فرنسياً . وكان بيد اغوجيا ممتازاً ، عندما لا ينهكنا باستطرداته حول كل ديانات الارض . لقد كان في الواقع منتسبا لجمعية دينية اميركية تؤمن بعودة المسيح – Adventisme . وكان مطمئناً الى انه يمتلك الحقيقة التي يحاول ان ينشرها في كل مكان حتى في الفصل . وكان في نفسه شيء من اسلافه ، قضاة محاكم التفتيش الاسبانية . ولكي يكون اعتقاده هو الصحيح يجب ان تكون كل المعتقدات الاخرى سيئة وجديرة بالاحتقار .

ذات يوم ، في الفصل ، لم يتورع عن مصادمة تلاميذه المسلمين بالتهجم

بعنف على الاسلام،فقال لنا صاخباً في خلاصة تثريب طويل: «نبيكم محمد كذاب»
فانتصبت قائماً وكان الغضب قد صفّر وجهي وقلت له :

—سيدي تستطيع ان تقول هذا امام اطفال . لاننا صغار جداً . ولا نعرف شيئاً لكي نناقشك. ولكن يجب ان تفهم بان ديننا مقدس بالنسبة لنا. كلا . كلا . انه ليس جميلا منكم ان تقولوا هذا الكلام .

لم اعد اذكر بالضبط الكلمات التي قلتها . لانني كنت ارتجف من شدة الغضب . ربما كنت اكثر عنفاً . وكان من الطبيعي ان ينفجر بن افيديس فعاقبني وطردني من الفصل وهدّدني حتى بالطرد من المدرسة تماماً ؛ ولكني صمدت . وشيئاً فشيئاً هدأت الفضيحة . ولقد شعرت بهاانا فضيحةمضاعفة . بالنسبة لتلميذ ، فان تذكير مدرس بحدود وظيفته كان شيئاً سيئاً . ولكن ان يكون هذا التلميذ « انديجان » ويختصم مع أوروبي، فان ذلك كان الف مرة شيئاً جديراً بالعقاب .

ولأن هذا الحادث جعلني مريضاً لاكثر من خمسة عشر يوماً ، ولأنه ترك في نفسي آثاراً لن تزول،فاني ما زالت محتفظاً به في الذاكرة ولكنه لم يكن الحادث الوحيد سواء في المدرسة او في المدينة فان الف صدام صغير كانت تذكرني كل يوم بالتمييز العنصري الذى كنا موضوعاً له . لقد كنت مصمما فيما يخصني على عدم قبول هذا التمييز ابداً . ومنذ ذلك العهد شعرت من اعماق قلبي انني ثائر .

هذه الخصومات ، وهذا التوتر لم يكونا ليسهلا دراستي . وفي نهاية عامين قضيتها في تلمسان ، لم اعد ذلك التلميذ الطيّب الذي كنته في مغنيه. وهكذا كنت اشعر بعزلتي في مدينة كبرى بعيداً عن عائلتي وبعيداً عن أبي . وشعرت بذلك اكثر عندما افلس صديقي ابي واصبحت وضعيته المالية بين عشية وضحاها

شديدة السوء . ورغم هذا فان هذا الرجل الجدير بكل اعجاب لم يرد ان يسمع مجرد الحديث عن رحيلي . وواصل إسكاني وإطعامي ولكني انا لم اكن آكل خبزه بدون شعور بتبكيت الضمير ؛ وكنت متأثراً من رؤية هؤلاء الرجال الشجعان متورطين في الصعاب . وهذا ايضاً لم يكن ليسهل دراستي.

اعتقد ان ما انقذ توازني المعنوي في هذه الفترة هو الرياضة التي انغمست فيها بحماس فائق ، بالاخص كرة القدم ، التي ملكت علي نفسي وحققت فيها تقدماً سريعاً . لقد كانت الرياضة بالنسبة لي ظاهرة للتعويض . ومن الطبيعي انني افهم هذا اليوم . فقد كانت الرياضة مجالاً لا ألقى فيه قسراً ولا حدوداً غير حدود قوتي .

وعندما كنت ادفع الكرة امامي هاجما بسرعة على هدف الخصم ، فان احداً لم يكن ليطلب مني ما اذا كنت « جزائرياً » ام « أوروبياً» . الامر كله لا يتعدى كوني اسجل الهدف او لا أسجله . ان اخفقت فأنا المسؤول عن اخفاقي . وان نجحت فأنا الذي يعتز بذلك .

كنت لاعباً بخط الوسط ، وفي ذلك العهد كان لاعب الخط الوسط يقوم بعمل خارق للعادة ، دفاعياً وهجومياً . وكان دائماً عرضة للمتاعب . لقد تغيرت اليوم الأساليب . وفرقة اللاعبين في الملعب تتصرف بشكل آخر . وبصفتي لاعباً بخط الوسط في تلمسان فقد كنت قطب الفرقة : الفرقة الجزائرية . اذ ان التمييز العنصري في تلمسان كان عكس ما كان عليه بمغنيه ، وقد تسلل حتى الى الرياضة . ومرة في كل عام كانت فرقة الكولون تتقابل في الحوض الكبير مع فرقتنا . وللحقيقة اقول ان فرقة الكولون هي التي كانت تفوز عادة . لقد كنا اكثر تفوقاً عليهم من حيث التكنيك الخالص ،

ومن حيث المهارة ، ولكنهم كانوا اكثر ثقلاً ، واكثر قوة . وباختصار لقد كانوا يأكلون أفضل منا .

وفي هذه الفترة اتصلت بالأوساط الوطنية ، اذ ان الاتحاد الوطني للمسلمين بشمال افريقيا ، الذى أصبح في سنة ١٩٣٧ حزب الشعب الجزائري ، كان قد تأسس حديثاً . وقد جذب هذا الاتحاد اليه الجزائريين المصممين على عدم قبول الواقع الاستعماري كضرورة أملتها الطبيعة . وبالأخص الشبان المتحمسين والصامدين. ومن بين هؤلاء كان عبدالقادر بركه الذي لقنني دروس الوطنية الاولى . وكان اكبر مني بعام ويدرس بمدرسة قرآنية . والتيار الوطني كان في ذلك العهد اكثر قوة في المدارس القرآنية لأن روادها كانوا مسلمين مئة بالمئة عكس الواقع في المدارس الفرنسية . وعبدالقادر بركه كان مثلي من مغنيه : انه انسان كريم ومخلص بغير حدود ، لقد اعطى نفسه جسداً وروحاً للقضية الوطنية . وهذا الرجل الطاهر ألهمني صداقة عميقة ومارس تأثيراً بعيد المدى على تكويني السياسي . ومع الأسف لقد مات حتى قبل بداية نضالنا . لقد جرفه وباء التيفوس الكبير سنة ١٩٤٠ وهو في الخامسة والعشرين . ولقد خسرت بعده رفاقاً كثيرين كانوا عزيزين على نفسي ولكن فقد أي منهم لم يزلزلني كما زلزلني فقد عبدالقادر بركه .

في سنة ١٩٣٤ اجتزت امتحان البروفي وعرفت بدون مفاجأة انني سقطت ، وقررت ان لا استأنف من جديد الدراسة . وخلاصة القول ان اخفاقي ، على خطورته على المستوى الشخصي ، لم اتأثر له كثيراً . لاني في ذلك العهد بالذات كان قد تمّ اختياري . وهذا الاختيار لم يكن بالتأكيد السعي للحصول على منصب موظف صغير في جهاز الدولة الاستعماري ، والأنسياب في هذا الاطار ، سعيداً برفاهيتي الصغيرة ، ومديراً ظهري لبؤس الجماهير الرهيب .

لقد شعرت بقوة في اعماق اعماقي ، من غير ان اكون قادراً على التعبير عن ذلك بالكلمات ، بان هذا ليس طريقي ، وان نجاحي الشخصي لا يساوي شيئاً ازاء تحرير شعب .

واصبح وضع الصديق الذي كان يؤويني اكثر سوءاً ، ولم اعد استطيع الى ما لا نهاية له ان ارهقه بلقمة اكثر . فقررت العودة الى مغنيه ، حيث وجدت بعض الشغل ، ولكن بدون ان ارتبط بأي شيء بعمق . عاونت في المزرعة ، وأشتغلت زمناً كسكرتير في الشركة الاحتياطية، وواصلت ممارسة الرياضة وسجلت نفسي في التدريب العسكري، من غير حماس.ولكني فكرت بان التدريب الذي سأناله ربما كان نافعاً لي في يوم من الايام .

وفي سنة١٩٣٧ دعيت للخدمة العسكرية وأحلت على فيلق المشاة الجبليين ١٤١ بمرسيليا .

كان الفيلق ١٤١ يعسكر في ثكنة القديس شارل ، غير بعيد من المحطة التي تحمل هذا الاسم . وكان يضم جنوداً فرنسيين وجزائريين . ولكن ضباطنا كانوا كلهمضباطاً فرنسيين من فرنسا.ومنذ اتصاليالاولبهم عرفت انهم لا يمارسون التمييز العنصري بين الجنود الفرنسيين والجزائريين . بالنسبة لي كنت كأنما دخلت الى عالم جديد . إن حقوقي كانسان، اصبحت لأول مرة ، معترفاً بها . وقبلت عن طيبة خاطر الطاعة العسكرية لانها كانت تطبق على الجميع بنفس العدل .

تابعت تمارين فصيلة ضباط الصف . وبفضل التمرين العسكري في مغنية استطعت ان اتابعها بدون عناء . ولكن هذا كان لا يكفيني . لقد كنتاريد ان امتاز . وأنا اعتقد ، بعد ان فكرت في ذلك ، بان هذا كان إجابتي الفطرية على موقف رؤسائي العادل .

وقد حصلت على برهان جديد على هـذه العدالة . ذلك انه في نهاية ستة شهور ، كان الجنود الشبان الذين يتابعون تمارين فصيلة ضباط الصف يجتازون امتحاناً . ولقد عرفت فيما بعد بانه في اللحظة التي كانوا يجمعون فيهـا مجموع العلامات كان ضابطان او ثلاثة يقطبون حواجبهم لانهم رأوا جزائرياً سيكون على رأس فصيلة تشتمل اساساً على فرنسيين . ولكن ردود فعلهـم ظلت معزولة . وساد بين الممتحنين الرأي الذي لا يعير اهتماماً يُذكر للأصل ، كان الذي يهم انما هو الاستحقاق . واذن فقد احتفظت بالمكانة الاولى التي اعطتها لي علاماتي . وهذا لم يكن الا عدلاً بالتأكيد ، ولكن هذا العدل في الجزائر ، كان امراً مستحيلاً .

سميت رقيباً . وكان تحت إمرتي فرنسيون وجزائريون ، وبدوري كنت احاول بنزاهة ان لا امارس بينهم اي تمييز ؛ وفي نفس الوقت كنت امـارس التمرين على القيادة .

عندمـا بدأت اخرج من الثكنة ، كان ذلك بالنسبة لي مصدر ابتهاج . كانت مرسيليا جميلة جداً . وكانت جميلة ايضاً الجبال التي تمتد حواليها والتي سنحت لي فرصة معرفتها جيداً ، لاني خرجت اليها اكثر من مرة مع فصيلة ضباط الصف . وبعد ذلك مع فرقتي . اما بالنسبة لسكان مرسيليا فلم تكن ثمة صعوبات لأجد لنفسي اصدقـاء بينهم . لقد وجدتهم جذلين ، ودودين وحاضري البديهة . ولقد اذهلتني حيويتهم الفائقة .

وكانت مرسيليا تلاحظ الجزائريين بتحفظ وبرودة ، على الأقل ظاهرياً ، ووسط المرسيليين ، وهذا أمر عجيب ، كنا نحن الذين نترك الانطباع بأننا من سكان الشمال [1] .

---

(١) لأن سكان مرسيليا يتكلمون الفرنسية بلهجة جد سيئة . ـ المترجم ـ

كان من الممكن ان أسرّح في عام ١٩٣٩ ، ولكن الحرب العالميـة الثانية اندلعت . فاحتُفظ بي تحت العلم وأُحلت على المدفعية .D. C. A برأس جانت. والـ «حرب العجيبة» لمرسيليا كانت تشبه السلام شبهاً غريباً . ولقد احتفظت بوجه خاص من هذه الفترة بمباريات كرة القدم التي ساهمت فيها . لقد حققت تقدماً مرموقـــا كلاعب الوسط ، ومع صديقي النقاش كنت ألعب لحساب فرقة شاتو-كومبير الممتـــازة التي كان يرأسها السيد ميتيبى ، ولكن لم أبق فيها إلا زمناً جد قصير ، وانخرطت إثر ذلك في فرقـــة مرسيليا للالعاب الاولمبية حيث ساهمت في اللعب لمدة سنة .

منذ كنت جندياً كنت أسأل نفسي كيف اتصرف امام الخطر . وقصف مرسيليا في حزيران ١٩٤٠ تكفل لي بالجواب. كان الهجوم مفاجئاً ورهيباً. وكانت مدافعنا منصوبة على رصيف الميـنـــاء ، وذات صباح صاح ٍ ووضاح ظهرت فجأة في الجو طائرات شتوكا الالمانية ، وبصفير مصمّ خارق الآذان أخذت تطلق علينا وعلى مدافعنا وعلى السفن الراسية التي أغرقت منهـــا الكثير في دقائق معدودات وألحقت بالرصيف أضراراً كبيرة . وكنت الوحيد الذي بقيت مع مدفعي . اما رجال مدفعيتي الذين ذعروا من الانفجارات ، وجلهم من الجنود الشبان ، فقد لاذوا بالفرار.

لقد كان علينا في المساء ان نقرر ماذا سنفعل . ورفضت ان اصطحب مرة اخرى الرجال الذين خذلوني في العمل . وحصلت من رؤسائي على ان اصطفي بنفسي رجال مدفعيتي . فاخترت جنود احتياط من الكورسيكيين الذين كانوا قد دعوا قبل قليل الى وحدتي العسكرية . وتركوا لدي انطباعاً طيباً بمواقفهم .

ولم يكن لي إلا أن أغتبط لهذا الاختيار . فقد عادت طائرات شتوكا

في اليوم التالي أسراباً متعاقبـــة . ودام الهجوم اكثر من ساعـــة . ولكن الكورسيكيين ظلوا صامدين تحت النيران . ونجحنا في اسقاط عدة طائرات معتدية . وإثر هذه المعركة أصبحت موضوع حديث ومنحت وسام الحرب. وبعد أيام عندما كان العقيد يعلّق الوسام على صدري ، وبينا كنت منتصباً أمامه بالسلام العسكري ، أحسست بشعور غريب باللاواقعية: اني أحمل بذلة الجيش الفرنسي ، وأتلقى وساماً فرنسيـــاً ، ومع ذلك فلم اكن اشعر بأني فرنسي . بالتأكيد لم اكن اشعر بأي حرج بالمحاربة الى جانب فرنسا : ان معركتها كانت عادلة ، إذ أن الأمر يتعلق بالنضال ضد الفاشية . وكنت أعلم جيداً ماذا تعني الفاشية . فضلاً عن انه في الفيلق ١٤١ لم يكن لي بين رؤسائي ورجالي إلا الاصدقاء . كانوا اصدقاء ولكن لم يكونوا اخوة. وبينهم، ورغم انهم كانوا ودودين ، فقد كنت اشعر من كل شرايين قلبي بأني عربي . إن أهلي لم يكونوا هناك ولكنهم كانوا على الضفـــة الاخرى من البحر : عشرة ملايين من الفقراء والمحتَقرين ينتظرون تحررهم في صمت.

* * *

سُرّحت من الجندية عام ١٩٤٠ وتلقيت مباشرة عروضاً بالبقـــاء في مرسيليا كلاعب كرة محترف . وكان العرض مغرياً مالياً، وكنت اعـلم اني قد لا القى اي تمييز عنصري في الاوساط الرياضية وكنت اعلم ان الجزائر الاستعمارية قد لا يكون لها شيء تقدمه الي عند عودتي غير البطالة ، والبؤس والاحتقار . ولكني مع ذلك قررت ان اعود اليهـا . قلت لنفسي انه من المستحيل ان اعيش خارج بلادي . ومن المستحيل كذلك أن انجو بنفسي من المصير المشترك ، بالنجاح الفردي .

عدت الى مغنيه بضفيرة الرقيب ووسام الحرب : متاع خفيف لا يعطيني وظيفة. وكان الوضع في الجزائر يدعو للفزع. إن هزيمة فرنسا واحتلالها جرّا اليها ندرة السلع الغذائية وغلاءها . وبالنسبة لـ « ليزانديجان » الذين يملكون حتى في وقت السلم أضعف القدرات الشرائية فان العواقب كانت وخيمة . لقد اصبح الفقر إملاقا ، والاملاق تحول الى بؤس . وكما في كل وقت ، عندما يتفاقم نقص التغذية عند اوسع الجماهير الانسانية ، فان الأوبئة تضيف فتكهـا الى الجوع . وفي سنوات معدودة قتلت حمى التيفوس الطـفْـحية Exanthématique مئات الالوف من الاشخاص من بينهم اعز واطهر صديق: عبد القادر بركه .

عندما عدت الى مغنية وجدت اخي قويدر في مرض خطير . ثم مات بعد قليل . كم كانت كثيرة المصائب التي حملتها الحرب والمرض الى عائلتي ! عمر ، رحال ، ويسيني وقويدر ، كل اخوتي ماتوا . وكذلك ابي .

بقيت مزرعة والدي مهملة ، فقررت ان اتولى تسييرها . وشرعت في توسيع المساحة الصالحة للحراثة وذلك بتنقية الحجارة من الارض الموات . انه لعمل كبير . ابدأ اولا بحرث الارض على قدر ما استطيع، ثم من هـذه الارض المحروثة سطحياً آخذ في التقاط الحجارة باليد ، واحدة بعد اخرى ، ثم اضعها على تخوم الحقـل في هيئة حوْش . ولم اكن اربح من الارض الا مساحة قليلة جداً لان عدد الحجارة كان بلا نهاية. وبعضها كان شديد الثقل، ولم تؤد معالجتها واخراجها الى جعل راحتي فقطصلبتين ومتشققتين بل كذلك اطراف الاظافر . وفي المساء كان النوم يستولي علي بسرعة وانا ثقيل متعب. فكنت اغوص في النوم كما تغوص الحجارة في الماء . وكانت تمـلأ احلامي الحجارة ايضاً . دائماً الحجارة التي أقتلعها من الارض ،وأحملها نحو الحوش .

لقد كان هذا العمل بلا نهاية . وكان يمكن ان استمر فيه طول حياتي دون أن آتي على الثلاثين هكتـــاراً . ولكنه علمني بالاقل الصبر والدأب بهدوء ، يوماً بعد يوم على المشروع ، اي مشروع اعتقد انه جدير بالانكباب .

كانت سلطة المرشال بيتان في الجزائر في اوجها . وكان المستفزون يتجولون بين الجماهير الجزائرية لايقاظ الاحكام المسبّقة القديمة ودفعها لتقتيل اليهود. ولكن الجماهير اخذت حذرها من المستفزين وواجهت الدعاية الرسمية بنفور كامل . زيادة على ان جماهيرنا كانت غارقة في مشاكلها الخاصة ، لأن البؤس الذي غاصت فيه كان يتفاقم شهراً فشهراً .

في الفرقة الرياضية التي كونتها في مغنية ، كان حليفي اليساري في اللعب يهوديـــاً ، روجي بن عمّو ، ولا يستطيـع الانسان ان يتصور الضغوط التي مارستها عليّ السلطة المحلية من سنه ١٩٤٠ الى ١٩٤٣ لكي اطرده من فرقتي . لقد ذهبت السلطة الاستعمارية الى حـــد تهديدي بالسجن اذا لم امتثل «للأيحاءات» . ولكني رفضت حتى النهايـــة ممارسة التمييز العنصري الشنيع ، الذي كنت انا نفسي غالباً من ضحاياه ، على رفيق ممتاز . واستمر روجي بن عمو يلعب معنا اثناء حكم فيشي Vichy .وفيما بعد وقف هو بدوره منا ، اثناء الحرب التحريرية ، موقفا ليبراليا مما دفـــع منظمة الجيش السري الفرنسي O.A.S الى ضرب منزله بقنابـــل البلاستيك؛ ولكنه نجا من الموت باعجوبة . وبعد الاستقلال ظل في بلادنا . وسررت كثيراً بزيارتـــه لي منذ شهور . وهو اليوم عدل منفذ بوهران .

كنت اواصل تنقية الحقل من الحجارة بجهد ، ولكن ايضاً باصرار . لانه مهما كان هذا العمل صعبا فقدكان ايضاً مغرياً . وهل هناك هدف اجمل من أن يجعل المرء ، ولو قطعة جد صغيرة من الكرة الارضة ، منتجة؟..ولقدغرست

ايضاً ، وبالاخص اشجار اللوز . ولم اكن متأكداً ، في مخاوف ذلك الوقت، وانا اعلم ان الحرب ستخطفني من جديـد ، من اني سأجني يوماً ولا حبة لوز واحدة . ولكن ذلك لم يكن يهمني الا قليلا . لان آخرين غيري سيجنونها، وقبل ان يتلذذوا بالثار سينعمون بجمال الازهار .

منذ بضعة شهور رأيت من جديـــد لوزاتي كان بيتي الصغير في سفوح الربوة،بعد اكثرمن عشرين عاماً، قد تهدم وكنت اعرف ذلك. وانا لم اعد من اجله الى مغنيه بل من اجل لوزاتي . انها تقريباً جميعـــاً قائمة . الا بضع لوزات هلكت . لا ادري من يجمع اليوم ثمارها .ولكن رؤيتها كبيرةً وقوية بعد هذه السنين جعلتني اجد من جديد ذلك السرور العميق الذي شعرت به وانا أغرسها .

الفصل الثاني

حَمْلة ايطاليا

جعلني احتلال الحلفاء لأفريقيا الشمالية أتوقع أن يستنفروا جنود الاحتياط . وخلال صيف ١٩٤٣ دعيت من جديد للخدمة العسكرية . وقد أحالوني على الفيلق السادس للمدفعية الجزائرية بتلمسان . وكم كان الاختلاف بين الفيلق ١٤١ في مرسيليا والفيلق ٦ في الجزائر واضحاً . إن اللامساواة بين الضباط الجزائريين والضباط الفرنسيين كانت فاضحة . هناك قاعتان للأكل منفصلتان للصنفين من الضباط ، ومطبخان مختلفان لضباط الصف . وصحوننا لم يكن لها الحق في ان تتآخى مع صحون الفرنسيين المساوين لنا في الرتبة . وكؤوسنا لم يكن لها الحق بان تُقرع مع كؤوسهم حتى ولو كان بكؤوسهم خمر وبكؤوسنا ماء . ولن اقف طويلاً عند الضيق والمهانة التي يسببها هــذا التمييز العنصري .

وكان الجزائريون يضيقون بذلك ذرعاً اكثر فاكثر ، وبالنسبة للشعوب الرازحة تحت الحكم الاستعماري ، انفجرت سنة ١٩٤٠ كهزيم الرعد . لقد تنحّى التاريخ عن دروبه التقليدية ، وفجأة اطلق لمسيرته العنان ، فاذا بالحدود وبالدول تتهاوى . وكل شيء اصبح موضع شك . وكنا نشعر ان الجزائر لا يمكن لها ان تظل بعيدة عن هزّات العصر العظيمة . كنا نشعر

وكأننا نستيقظ من نوم طويل ونحاول الوقوف متوكئين على التراب الذي كان ملكاً لآبائنا .

في الفيلق السادس نظم الضباط الجزائريون مقاومة للتمييز العنصري كنت انا ملهمها وقائدها . لم نكن قادرين على شيء ذي بال . ولكن ، بالنسبة لنا، كان شيئاً كثيراً أن نؤكد كرامتنا وأن نبـدأ النضال ، ولو في نطاق وضعيتنا الضيق . على اية حال لم يخطيء رؤسائي في تحديد دوري في هذه المقاومة . وفي نهاية بضعة اشهر أُحِلْت بدون اقل توضيح للسبب على الفيلق الخامس للمدفعية المغربية . وقد كان الاجراء ماهراً . وجدت نفسي جزائرياً بين مغاربة ، في وسط جنود قدماء ومحترفـين وغرباء عن كل ادبولوجيه . وكانوا قد اصبحوا ممتزجين بالفيلق .

لقد كان من الممكن ان يكونوا كذلك . لانهم كانوا يعاملون فيه معاملة طيبة . ولقد وجدت انا نفسي روحاً تسود الفيلق المغربي الخامس مختلفة عن الروح السائدة في الفيلق السادس . فالكوادر كانت كلهـا من فرنسيي فرنسا . وأُلحقت بسرية النقيب دوفيلوكور الذي سحرني منذ اللقـاء الأول ، لانه كان رجلاً بدون التواء ولا ضيق افق ، انسانيـاً مع الرجال ، وبطلاً في المعركة . منذ وصولي الى الفيلق الخامس المغربي استدعاني وحدثني بلغة جد صريحة : انـه لا يجهل افكاري ، وانه يحترمها ، ولكن سأضيع وقتي سدى إذا أردت أن انشرها بين المغاربة . فضلاً عن اننا سنذهب وشيكا الى المعارك . وكان يعلم اني عدو للفاشية ، وان النضال ضد المانيا النازية كان له معنى عندي . ألا نستطيع ان ننسى اختلاف وجهـات نظرنا في النضال ضد العدو المشترك ؟ هذه اللغة بدت لي معقولة ، وبدون تردد وعدت النقيب دوفيلوكور بأن لا اقوم بأي دعوة بين الناس في السرية . وعندئذ وضعني في

فصيلة المساعد الفونسي حيث أخذت قيادة فرقة . وكان الفونسي من جزر كورسيكا ، مطيعاً منضبطاً في الخدمة . وكان يحب المغاربة الذين بادلوه حباً مضاعفاً . وعلاقاتنا منذ اليوم الأول كانت ممتازة .

بعد قليل من وصولي الى الثكنة حلّ شهر الصيام ، وفوجئت بأن عـدداً كبيراً من الجنود المغاربة لم يكونوا يصومون ، وفوجئوا بدورهم برؤيتي صائماً لأنهم يعتبرون الجزائريين ، لكونهم يتكلمون الفرنسية ، متفرنسين اكثر منهم . ولقد أحزنني أن أرى هؤلاء الرجال الشجعان بعيدين عن الاسلام . ودون ان اكون أنا نفسي أليف مساجد ، فاني مؤمن وأرعى فرائض ديني . لا أشرب خمراً ولا آكل خنزيراً. بيد اني اذا كنت لا ادخّن فذلك ليس عن زَماتـَة دينية بل امتثالاً لقواعد الصحة الرياضية .

في البداية بدا لي المغـاربة حذرين شيئاً ما ، ومنغلقين بعض الانغلاق . ولكنهم تفتحوا بسرعة . وعندئذ وجدتهم جد مشوقين . لقـــد كانوا جميعاً جنوداً قدامى و«الزرق»منهم قضوا في الفيلق الخامس عشرة اعوام في الخدمة العسكرية . أما جنود الطبقة الاولى – وهذا الامتياز كانوا يتحاسدون عليه فيما بينهم–فقد كانت أقدميتهم تتراوح بين عشرة واثني عشر عاماً.وهذا الزمن الطويل الذي قضوه معاً يفسر الالتحام شبه العائلي لفرقتهم والتعاطف الذي يحمله بعضهم لبعض . اذا كان هناك شيء يكرهه الجنود المغاربة – بعكس الجنود الآخرين – اثناء حملة ايطاليا فهو إرسالهم الى المؤخرة او الى المستشفى عندما يجرحون . وحالما يتماثلون للشفاء فانهم يرفضون كل رخصة نقاهة ،لأن لهم فكرة وحيدة : العودة الى الجبهة على جناح السرعة للالتقاء بفرقتهم .

ولاجتناب اختلاط الألقاب العائلية كانوا يُدعون بأرقامهم. وبحكم العادة كانوا يدعون أنفسهم بهذه الطريقة ، واحياناً كانوا لا يعرفون من الفرنسية إلا

لفظ أرقامهم . وأنا ما زلت اذكر جنـــدياً مدهشاً ، العريف ٣٩ . كنت ادعوه هكذا خلال شهور ، من غير ان افكر في ذلك . وعندما عدت الى افريقيا الشمالية ، عرفت موته من رسالة بعث بها إلي النقيب دوفيلوكور . ولأول مرة أدركت كم كان غريباً ان لا اعرف اسمه.والنقيب دوفيلوكور هو نفسه يجهله ، لأنه كتب لي : « المسكين ٣٩ قد قتل » . وعندمـا كنت اقرأ رسالته كانت عيناي مثقلتين بالدموع : الـ « مسكين » ٣٩ سيظل مجرد « ٣٩ » الى الأبد الأبيد . وللمرة الاولى شعرت بالعار لعدم معرفة اسمه .

وفي أثناء حملة ايطاليا كنت أقضي جل اوقات فراغي ، عندما لا تكون هناك معارك ، في كتابة رسائل وحوالات جنودي المغاربـــة ، وعناوين الطرود الصغيرة التي كانوا يرسلونها الى ذويهم . كانوا يتمكنون من الحصول على بعض النقود ، لان رصيدهم القليل كان يتراكم بعد عدة شهور في الجبهـــة . وكانوا حالما يستطيعون يشترون به هدايا تذكاريـــة وحلى غريبة وقطعاً من القماش ، وفي حزم صغيرة تزن بصعوبـــة ٢ كيلو كانوا يرسلون كل شيء الى زوجاتهم . كم قضيت ساعات وساعات في كتابـة هذه الرسائل . وفي ربط وحلّ هذه الطرود الضئيلة ، وعندما يطلبون ذلك مني، كنت اعطيهم نصائح فيما يتعلق بمشاكلهم العائلية ، اذ انه رغم اني كنت اصغرهم سناً ، فقد كانوا يعتبرونني كأب ، لاني كنت رئيسهم وكنت حَدِباً عليهم . وفي الوقت نفسه كانوا ، وهذا على شرفهم ،يعترفون لي بالجميل. إن القلب وحده الذي لم يتعفن هو القادر على الشكران . اما الانسان اللئيم فانه لا يشعر الا بالغل عندما يتذكر الافضال .

كانت علاقاتنا ثقة متبادلة ، الى درجة اني ما اكاد آمرهم حتى يطيروا خفافاً امام أوامري . كانوا قد تعودوا على الانضباط الدقيق . ولكن ايضاً

لان هذا الانضباط كان بسيطاً وواضحاً وهم يَهَبون انفسهم برمتها الى الرئيس الذي يشعرون لديه بالحب والعدل .

نزل الفيلق المغربي الخامس بنبولي في ديسمبر ١٩٤٣، وكانت تحية هذا النزول هجوماً من اسراب طائرات شتوكا . ولم يتضرر كثيراً لان الهجوم كان مع مقدم الليل . وبالتالي لم تكن الرؤية مساعدة . وفي اليوم التالي ، عسكرنا في الجبل ، وصادف ذلك حلول عيد الأضحى . ونجحنا بعد لأي في العثور على خروف لاكل الشواء التقليدي . ولكن خيبتنا كانت مضاعفة : لقد كان الخروف الإيطالي سميناً جداً،وهذا ما جعله بدون نكهة . وما كدنا نبدأ اكله ، حتى تلقينا الامر بطيّ الخيام ومواصلة المسير .

اخذنا مواقعنا امام جبل يدعى مونتانو ، في معسكر وحدة أمريكية أحسّت بالراحة عندما رأت مقدمنا ، لان الالمان ، المعتصمين بذرى الجبل باحكام ، كانوا قد اذاقوها اياماً عصيبة،ومعنوياتها كانت اخفض ما تكون وما زلت اذكر بان صحافة الحلفاء كانت تزعم حينئذ ، وباسلوب منتصر ، بأن الجيش الخامس يتقدم بمعدل خمسة كيلوميترات يوميـــاً ، نحو الشمال . وللاسف كان ذلك غير صحيح.فالجيش الخامس منذ خمسة وسبعين يوماً وهو لا يَريم . لان الالمان ، الذين هم دهاقنة تكتيك عسكري ، كانوا يحتلون مشارف جبل مونتانو الاربعة ، وقد تخلوا لنا عن المشرف الخامس بحيلة ، لأنهم كانوا يعرفون اي مشاكل تموين سيطرحها علينا هذا الاحتلال . وفعلا لكي نبلغ هذا المشرف الصخري الذي ينتصب ، شرساً ، على ارتفاع ١٥٠٠ متر ، كان لا بد لنا من استخدام الحبال، وبهذه الوسيلة البدائية،كنا نصعّد المؤن والعتاد الى القمة . اضف الى هذا الثلوج والبرد العنيف والجثث المتناثرة هنا وهناك ، في المنطقة الحرام ، حيث جمدها الجليد .

لم تكن ثمة ملاجىء ضد الجليد او قل انها كانت قليلة . نظراً لأن مواقعنا ومواقع العــــدو كانت على قاب قوسين او ادنى . وقد كان من المستحيل استخدام الدبابات ، والطيران او حتى المدفعية ، ومن هنا اقتصرت المعركة ، مثل سنة ١٩١٤،على سلاح المشاة الصغير : البندقية ، والبنـــدقية الرشاشة ، والرشاش ، والقذائف اليدوية ، ومدافع الهاون . وباختصار ، حرب المواقع الشتائية ، بكل متاعبهـا : البرد الذي يجمدك حتى العظم ، والإصابات بذات الرئة ، والارجل التي قرّسها الصقيع .

في الليلة الاولى لم يغمض لنا جفن. كان الالمان يتلصصون في الظلام حولنا، وكانت دورياتهم في كل مكان حتى المنطقة الحرام ، وكانوا يرمون بالقذائف اليدوية ، يستدرجوننا ويلعبون على اعصابنا . وفهمنا من شتائمهم بالانجليزية انهم كانوا يعتقدون انهم ما زالوا يواجهون جنوداً اميركيــين . وهؤلاء لم يكونوا ابداً يقومون بالدوريات . ولم يستطيعوا ان يقولوا لنا حتى أين يقع المركز الامامي للعدو . وشيئاً فشيئاً تركوا الالمان يطوقونهم بهذه الدوريات المتواصلة وهذه التحرشات ، وهذه القذائف وهذه الشتائم .

وأدرك عقيد الفيلق الخامس المغربي بأنه ينبغي علينا ان نتحرك وان نقوم نحن ايضــاً بالدوريات . ولم يكن ذلك سهلاً لأن الالمـان اغتنموا سلبية اسلافنا الاميركيين ليزرعوا المنطقة الحرام بالالغام . ومنذ الخرجة الاولى قتل عريف على بعد ٣١ متراً منا .ومن ملاجئنا المسْتَـهدَفه كنا نستطيع ان نرى جثته ممددة ، وهذا المنظر أحزن المغاربة لأنه مناقض بعمق لتقاليدنا التي لا تترك ميتاً بدون دفن ، إذ سيكون معرضاً لكل رجس ، وهذا الرجس من شأنه أن ينال من حياته في العالم الآخر . وأدركت انه كان ينبغي ان نأتي بالعريف اذا كنـــا لا نريد ان نجرح ، ربمـــا على نحو لا يندمل ، مشاعر

رجالنا . وطلبت ثلاثة متطوعين وذهبت أنا نفسي معهم في التماس الجثة . وقضينا ساعتين لاجتياز الثلاثين متراً التي تفصلنا عنها . كنت أمشي أمامهم ولكني أتجنب الالغام الطافرة . كنت أقفز على الحجارة التي كانت تبدو من خلال الطبقة الثلجية الرقيقة . وهكذا كنت أتقدم من حجر الى آخر . وهو جهد صعب لأن الحجارة كانت احياناً جد قصية بعضها من بعض والمتطوعون الذين كانوا يتبعونني كان عليهم ان يضعوا أقدامهم على مواطىء أقدامي وأن يَسِمُوا ، للرجوع ، الاحجار التي جربتها .

وبسرعة أدرك الالمان ان ثمة شيئاً قد تغير في قطاع مونتانو . وقيادة الحلفاء التي رأتنا نصل ، بدون رغبة منها ، بدأت تقدرنا . ذلك انه اثر حملة تونس ، قرر الايطاليون والاميركيون في اتفاق سري بأن لا تدخل الفرق الفرنسية الى ايطاليا . ولكنهم لم يقرأوا حساباً للجنرال ديغول... الذي كان يعوّل كثيراً ، ولسبب ما ، على إسهام فرنسا في تحرير اوروبا . ولذا بدأ يضع الحلفاء امام الأمر المقضي بقراره الخاص بفتح جزر كورسيكا . وبنفس التصميم الذي لا يتزلزل فرض حضور فرقة فرنسية في ايطاليا .

وكانت فرقتنا التي استُقبلت باستثقال ووضعت ، على ما نعتقد ، في المواقع الأقل مُوَاتاة ، تحتل واجهة عسيرة وبدون امكانيات التداول او الراحة لأن هذه الفرق ، بخلاف جيوش الحلفاء ، لم يكن لها احتياطي . لقد كنا ، اذا جاز القول ، العنصر الدائم للجبهة ؛ ولا أخشى أن اقول ، العنصر الأكثر إقضاضاً لمضاجع العدو والأكثر تجربة .

ولما كانت وحدتنا قد برهنت بسطوع على قدرتها في أرض المعركة ، فان الحلفاء رغبوا فينا ليجعلونا نموت باكبر عدد على جوانبهم . وكلما طالت حملة

ايطاليا ، فان فرقاً فرنسية أخرى كانت تدعى الى الجبهة وتوضع ، وهذا مفهوم ، في طليعة المعركة .

في ١٢ جانفي – يناير – ١٩٤٤ تقدمنا الى الهجوم على سيلفا، وكان الالمان يتقهقرون،ولكن كانوا يشنون علينا سدوداً من المدفعية ، ليعطوا لأنفسهم الوقت للتقهقر بانتظام ولمضايقة تقدمنا . وهذه السدود كانت دائماً مرسومة على نفس النموذج : جزء منها متحرك؛ والآخر ثابت ومرصود لنقط المرور الاضطرارية . وهناك كل دقيقتين أو ثلاث كان رصاص المدافع يسقط مدراراً . كانت فرقتنا قد اجتازت احد هذه الممرات وغدت على بعد ٥٠٠ متر منه عندما افتقدت المساعد الفونسي. اقتربت من النقيب فيلوكور:

– نقيبي ، هل شاهدتم الفونسي ؟

– انني حقاً أبحث عنه .

ومرت لحظة صمت ، وقرأت في عينيه اننا نفكر بالشيء نفسه . ثم قال لي بلهجة جافة :

– على كل حال ، يطيب لي أن تبقى هنا ... هل تسمع ؟ اني اعطيك أمراً بان تبقى هنا .

قلت : « نعم نقيبي » .

وفي اللحظة نفسها التي كنت أقول فيها : « نعم نقيبي » كان كل ما كنت أفكر فيه هذا : « هناك لحظات يجب فيها معرفة عدم الطاعة » .

انطلقت أبحث عن الفونسي ، وكانت كثافة الطلق لا تصدق . وكان تقدمي بطيئاً . ورأيت المساعد ممدداً في قلب السد مجروحاً جرحاً بليغاً ، ومغمى عليه ، وقد وضعته على كتفي وأخرجته من هناك . ولكن بدلاً من

أن آخذه الى المؤخرة أخذته الى المقدمة . والتحقت واياه بخطوطنا . أما فيلوكور الذي كان في حالة سُعار ورضى ، في وقت معاً ، فقد وبخني ثم قال لي :

– والآن ليس لك إلا أن تمرّ به الى الضفة الأخرى من السد ليؤخذ الى مركز النجدة .

وهذا ما فعلت ، ولكنني طلبت هذه المرة الى جنديين مساعدتي ، لأن الفونسي كان ما يزال مغمى عليه وبلا حراك . لقد نجا من الهلاك ، ولكنه كان أضعف جداً من أن يلتحق بخطوطنا . ولم أره إلا بعد سبعة شهور بمستودع وجدة ، وكان ساعده جد متآكل ، وهو حزين لأنه أخطأ نهاية الحرب .

بعد بضعة أيام ، ٢٠ ينـاير ، اذا كانت ذاكرتي دقيقة ، هاجمنا سانتا كروس . وكانت معركة شديدة العسر، على ارتفاع ١٦٠٠ متر . ولقد تداولت الأيدي بعض المواقع مرات عديدة . وكان خط العدو وخط الحلفاء على قاب قوسين الواحد من الآخر ، الى الحد الذي بات المرء فيه لا يعلم ، في النهاية ، أين كان الألمان وأين كان يعتصم جنودنا. أضف الى هذا، اشلاء الضباب الممتزجة هنا وهناك بقمة الجبل .

وذهبت الى الاتصال بالوحـدة المجاورة ، فوصلت مظللا بالضباب ، الى اقل من عشرة امتار من الالمان . ولحسن الحظ سمعت واحداً منهم يتحدث ، فتوقفت ثم رجعت على خطاي بسرعة . لم اكن اهتم بان انهي الحرب أسيراً .

جرح النقيب فيلوكور في فخذه . ولم يكن يلزمنا اقل من خمسة رجال لانزاله الى التجويف الذي جرح فيه الفونسي وأخـذه الى مركز النجدة .

ورغم ان النقيب كانت أصابته اقل خطورة من المساعد ، فانـــه كان يتألم كثيراً في كل حركة ضغط كنا نحدثها له . ولكنه لم يشتك ولو لمرة ولم يغب عن وعيه لحظة .

وفي سانتا كروس ، فيما اظن ، بدأت معنويات الالمان تنخفض . وقـد أسرنا في مونتانو وفي سيلفا بعض الجنود . أما في سانتاكروس ، لاول مرة منذ بداية حملة إيطاليا ، فان وحدات برمتها قـــد استسلمت . ولست ادري كيف نفسر هذه الظاهرة اذا لم نفسرها بانه في حرب المواقع ، عندما يبقى جيشان عظيمان وجهاً لوجه امداً جد طويل ، فان احدهما ينتهي بفضل الأصرار وروح المثابرة ، الى التفوق على الآخر بسلطة لا تدفع . ويشعر المرء بهذه اللحظة حيث يشرع الخصم ، دون سابـــق انتظار ، يتخلى ، لا لاننا أثخنـّاه ولكن لانه يشعر في نفسه بانه اضعف .

ومع ذلك فان الوحدة التي تواجهنا كانت ممتازة .كانت من البانزر Panzer ولكنها ، نظراً لطبيعة الارض التي تدور عليها المعارك كانت تقاتل بدون بانزر . ولم يكن لهم فيه الا كثير من المزايا . والحق ان خذلانهم لم يكن الا سحابة صيف . فقد استرد العدو انفاسه بعد سانتاكروس. واوقف تقدُّمنا على موقع كان قد اختاره ونظمه لنا بشكل عجيب كاسينو .

عادت المتاعب من جديد . وكانت فرقتنا ترى جنودها وضباطهايذوبون، وكانت وقتها تحت قيادة مرشح الزاسي يدعى (Z) كان يبدي قليلاً من الشجاعة عند الهجوم وكثيراً من الحقـارة عند الراحة . لقد كانت لي الفرصة أن الاحظ اكثر من مرة ان افضل الضباط هم احسنهم ايضاً في المعارك بلاءً، والوقوف تحت النيران هو المعيار الأكثر أماناً لمعرفة موقف رئيس من رجاله.

ان الذي يكون جباناً تحت الرصاص يكون ايضاً جباناً في علاقاته الانسانية بدون كرم وبدون عدالة . وهذا ما كانه (Z) . لقد كان يتفق له احياناً ان « يغيب » في لحظة الهجوم ، وعندما يعود الهدوء ويمر الخطر، لم يكن أحد غيره يلوّح بحقوقه وشاراته؛ ولسوء الحظ كانت علاقاتي معه اكثر مما كنت اريد ، لاني كنت ، الى جانبه ، مساعد الفرقة .

ساءت الأمور عندما بعث الفرنسيون المقيمون باميركا الشمالية طرود الهدايا للفيلق الفرنسي بايطاليا بمناسبة رأس السنة . فلست ادري اي ضابط احمق من المؤخرة تخيل ، وهو جالس بأناقة في حرارة مكتبه ، ان يحرر مذكرة ادارية توصي بان يقع توزيع الطرود في الجبهة على النحو التالي : طرد لكل فرنسي . وطرد لكل ثلاثة مغاربة ..

وحالما علمت بهذه المذكرة ، ذهبت لرؤية Z ووضّحت له بشدة الطابع البشع لمثل هذا التمييز ولاول وهلة اخذ الأمر من عل وقال انه يؤيد المذكرة. وزعم انه سيطبقها . فاغتظت وقلت له اشياء قاسية ، وذكرته ، فيما قلته له من كلمات جارحة ، بجبنه في المعارك ، وتركته ، من غير ان احييه ، مجنوناً من الغضب .

لقد كانت المذكرة غبية بقدر ما كان يسود بين الفرنسيين والمغاربة ما في الجبهة من تضامن رائع . كان الجميع يشعرون انهم متساوون امام الموت. إن رصاص العدو لم يكن يميّز بينهم ، وكذلك الصداقة . واذا كان Z لا يدرك هذا فان ذلك يظهر الى اي حد كان خالياً من الانسانية . وفي الواقع فان كل ما تمسك به من سخطي عليه ، هو ان رقيباً لم يحترمه . فكتب تقريراً طويلاً الى الرائد : وصفني فيه باني كنت « مهرجاً » وباني بكل تأكيد لا استأهل الوسام العسكري الذي نلته ...

بعد بضعة ايام ، جاءني ضابط ليقول لي ان النقيب فيلوكور طلب رؤيتي في المستشفى الذي يقيم فيه : فأخذت سيارة جيب وذهبت اليه فوراً : نزهة صغيرة على مسافة ٤٠٠ كلم هدأت أعصابي. وجدت النقيب في احسن الاحوال صحة ، وحالاً قصصت عليه الحادثة. فاعطاني الحق فيما يتعلق بالاصل واعادني الى وحدتي، بشوشاً، وبعد ثمانية ايام طار المرشح Z واحيل على فرقة القبّارين: ولم يعد يقاتل بعد اليوم، وكل ما كان له هو ان يدفن قتلى المعارك . امـــا تقريره ضدي فقد قُبر هو أيضاً .

وعلى كل حال لم يذهب الحادث عبثاً . فقـــد حرك ما يقارب اجماع الضباط ضد المذكرة الطائشة ، واستمر توزيع الطرود الاميركية بعدل بين المحاربين .

لم اتناول طردي ، لأني لا أتناول عادة لحوم البقر المعلبة ، والفاصوليا ، ومعاجين الفواكه ، والمعلبات الاميركية ، لأن هذه الاطعمة المعلبة اصطناعية وبدون مذاق ، ولا تلائمني . لقد قررت ان آكل فقط الخبز والعسل؛ وكنت أجد ذلك دائماً حتى نهاية الحملة . لقد علقت على الدوام بحزامي دنـّيْين ، احدهما معبأ ماء او قهوة والآخر عسلاً . وهذا العسل كان يزودني به الجندي الذي يخدمني . ولكن من المخجل ان اقول ذلك، كان عليّ بالاحرى ان اقول صديقي : لقد كان شاباً شلحياً[1] لم يبلغ بعد التاسعة عشرة من عمره، طويلاً، وشديد المقاومة . لم يكن يتكلم الفرنسية ، اما العربية فكان يتكلمها بصعوبة بالغة . ولكن كانت له موهبة فذة : أنـّى ذهبنا ، كان يعرف كيف يكتشف اجباح النحل . لقد رأيته اثناء العمل ، يتعرض للسع النحل ولكنه يواصل

(١) الشلح هو اسم يطلق على البرابرة من سكان المغرب الاقصى . — المترجم —

جمع الشهد بدون اضطراب . وفي الظاهر كانت اللدغات لا تؤثر فيه . وبفضله هو لم افتقد ولا لمرة واحدة غذائي الوحيد اثناء حملة ايطاليا .

في بداية العمليات كنت مسلحاً ببندقيـــة اميركية « جراند » . كانت دقيقة ولكن جد ثقيلة . وبسرعة عوضتها ببندقية خفيفة ، هي الاخرى من صنع امريكي ، وليس لها أية مزية أخرى غير خفتهـا ، لأن أقل ذرة غبار تعطلها . كنت ارى انه امر اساسي ان اكون خفيفـــاً ، لأني انتقل كثيراً لقيادة فرقتي، ولاختيار مواقع الرماية ، واربط الاتصالات . وكنت احمل في حزامي ايضاً مسدساً سأعود للحديث عنه .

هذا ما كان عتادي اثناء الحملة الايطالية . سلاحان ودنّان : للقتال والعيش . كانت حياتي صعبة وبدون فراغ . كنت أقاتل في سبيل قضيـــة عادلة . اعتقد اني كنت سعيداً، او بالاحرى كان يمكن ان اكون سعيداً، لو ان التفكير في الجزائر الشقية استطاع ان يفارقني لحظة .

بالنسبة لي ، كانت حرب المواقع هذه امام كاسينو اللحظة الاكثر امتحاناً في الحملة . ان يعيش الانسان في الثلج والوحل وان يكون بدون توقف هدفاً لقنابل المدفعية المعادية –ليس فيذلك شيء من المتعة ، فانه لم يبق من فيلقنا، كما كان في البداية ، إلا الثلث . ثم ان هذا الثلث قد تألم كثيراً. ولم يفتأ عدد الجيش ينهار من جراء الجروح والاصابات الرئوية، وصقيع الارجل . وكنت الوحيد الذي لم يغادر الواجهة ولا مرة واحدة . بيد اني أصبت بعرق النَسا من النوم في الثلوج وكنت امشي بعرج واضح .

ولما عاد النقيب فيلوكور بيننا ُجرحمن جديد. وعند عودته الىالمستشفى طلب مني ان اقوم مقامه الى حين عودته.لانه كان يريد ان لا تضعفالسرية.

لان القيادة كانت ، لتعويض المفقودين ، من الجرحى والقتلى ، تبعث لنا برجال لا دراية لهم ابداً بفنون القتال . وكان علينا ان نأخذهم على عاتقنا في شروط حياة عصيبة ، وهذا ما لم يكن سهلاً .

عاد النقيب فيلوكور من المستشفى على عجل لكي لا يحبط الهجوم الكبير الذي كان قيد الإعداد . وهجمنا على كاسينو الساعة الحادية عشرة ليلاً من الميسرة لكي نقطع امكانية الانسحاب على الالمان . لأن القيادة اكتشفت نقطة الضعف عندهم : انهم لا يحبون الهجوم بالليل . ولا نحن ايضاً ، ولكن الأمر كان جديراً بالتعب والأجهاد لنرى مَغْنَمَ المفاجأة والفزع الذي نسببه للعدو .

سقطت كاسينو . وتتابع الهجوم . وكنا نتوغل بدون توقف وكانت هذه هي اجمل لحظات الحملة . ولكن الالمان كانوا ما زالوا يدخرون لنا اكثر من خدعة . كنا نقترب من روما وننزل نحو السهل . وذات ليلة ، لم يعد يجد هجومنا دونه الا مقاومة تافهة . ربما كان علينا ان نحترز ، ولكن بعد هذه الشهور من الجمود ، كنا قد انتشينا بتقدمنا . وفي الصباح مع شروق الشمس وجدنا امامنا نموراً ، هي هذه المصفحات الكبيرة التي ظهرت في آخر لحظة على قمة ارض ناتئة واخذت ترمي خطوطنا تقريباً وجهاً لوجه بوابل من القذائف ملأنا رعباً .

ولم يكن لنا من ملجأ الا الحفر التي احتفرتها القذائف . وقد رصدت احدى هذه الحفر ، وانتظرت فجوة ، ووثبت بقوة اليها فسقطت على النقيب فيلوكور الذي كان قد اختبأ فيها . كانت اولاً لحظة ذهول ثم ضحكنا ضحكاً متواصلاً ؛ وبعد التأمل لم استطع ان اعزو هذا الضحك لشيء إلا لانحسار الخوف المفاجىء . وبعد كل شيء ففي خضم هذا الجحيم ما زال كلانا حياً .

لكن الحملة قد خابت . كان ذلك واضحاً ، لأننا لم نعد نسمع إلا طلق البنادق . فقال لي النقيب :

- « امش الى الامام وانظر ماذا هناك . هناك شيء ما قد اختل ».

وتقدمت فوجدت رئيس فرقة ، مرشحاً، منحدراً من شمالي شرقي اسبانيا قال لي :

- إن الأمر جد خطير ، الجنود فروا تاركين الـ F. M. [1] .

فسألته : - قطع F. M. الثلاث ؟

فأجاب بايماءة الرأس نعم ، وكنت احدق فيه . وهو منطرح ارضاً وسألني :

- إلامَ ستؤول الحملة بدون الـ F. M. ؟

قلت : « سأنظر في ذلك » .

وأخـذت ازحف على البطن . لم تكن مواقع الطلق الا على عشرات الامتار من المكان الذي وقفت فيه النمور . وكنت اتصبب عرقاً وانا اقترب وحيداً مما كان مواقع طلقنا والذي لم يعد الآن الا منطقة حراماً نسفتها القذائف . ومن حسن الحظ لم اظهر للعدو . ووجدت قطع الـ F. M. الواحدة بعد الاخرى وعدت بها الى خطوطنا . وبما اني كنت اكثر الوقت أزحف على بطني فلم اكن استطيع ان اعود بأكثر من واحدة كل مرة . ولذا كان علي ان أكرر الرحلة .

وبارتياح رأيت أمامي رأس المرشح الاسباني اللطيف . واتفقت معه على كتم الحادث ، لاجتناب عقد مجلس حرب لجنود الـ F. M. بجريمة التخلي عن

---

(١) F. M. تعني المدفع الرشاش . -المترجم-

السلاح . اذ ان هجوم النمور كان جد عنيف وتكبدنا فيه خسائر فادحة . وهذا عذرهم في الاستسلام للرعب .

وبينا كنت عائداً الى خطوطنا تقدم نحوي مغربي منادياً :

– رقيب ! صاحبك الشلحي مجروح . الآن أخذوه .

وركضت لأدركه . وعلى بعد ٢٠٠ متر من المكان تراءى لي في المَحْمَل متمدداً على بطنه . ولم يبدُ لي ابداً اكثر منه طولاً كما في تلك اللحظة .

– « واش تحس ؟ » .

فأجابني وهو يرفع رأسه ويبتسم : – بسيطة .

وفي الواقع كان ظهره قد خطته شظية ، وكان في جرحه الفظيع تناثر شظايا العظام . قلت :

– إشْف بسرعة .

– الله يسمعك.

وانطلق به الحمّالة . ولم يقطعوا إلا ١٠٠ متر حتى توقفوا من جديد وناداني واحد منهم :

– رقيب ! انه يحب يكلمك .

وركضت اليه فقال لي :

– فكرت فيك .

واستدار بحذر على جنبه ، وسحب من تحته دنّ عسل ومده الي .وبقيت لحظة صامتاً أمامه والدنّ باليد . ولكن الحمّالة كانوا معجلين . فقلت له :

– ارجع بسرعة .

– سأعود .

وفعلاً عاد . فقد شفي في وقت جد قصير . ورفض فترة النقاهة كما كانوا

يفعلون جميعاً . والتحق بنا في الخط الأول حيث استكمل شفاءه في ساحات القتال .

وفي النهاية دخلنا « المدينة الخالدة » . وعكس ما أكده الحلفاء فيما بعد فان الفرنسيين هم الذين دخلوا روما قبل سواهم .

وفيها لأول مرة اتصلت بالمقاومين الايطاليين . وأثر ذلك انطلقوا يقاتلون معنا في جنوب سيان . اريد هنا أن انسف ، مرة والى الأبد ، فكرة ان الايطالي انسان لا يبرهن على الشجاعة في القتـــال . انها فكرة خاطئة من الاساس إن الايطالي انسان داهية ، قليل التصديق. وهو لا ينخدع بالدعاية ولا يقبل ان يقاتل بدون هدف . ولكن اذا وجد في المعركة الهدف الذي تصور والذي يريد فانه على استعداد ليعطي حياته . والأنصار الذين كانوا يقاتلون معنا كانوا يعرفون جيداً ماذا يريدون : طرد الفاشية من بلادهم . ودون ان يكون لهم انضباط أو فاعلية جنودنا فانهم برهنوا على شجـــاعة عظيمة في اتمام المهام التي انيطت بهم .

بعد زمن قليل من احتلال روما مُنحتُ وسام الحرب. كنت قد حصلت منذ بداية الحملة على اربعة استحقاقات منها اثنان من نوع وسام الجيش وعلى قاعدة هذه الاستحقاقات الأربعة ، وايضاً مكافأة لقضية المدافع الرشاشة (فقد ذاعت رغم اني كتمتها لكي ينجو الجنود من العقاب) منحت وسام الحرب . وأقيم احتفال عسكري مشهود قدم الجنرال ديغول خصيصاً لحضوره، وكان هو الذي قلدني الوسام . لم يكن رجل الدولة العظيم وهو يعلق وسام الحرب على صدري ويعانقني ، يعرف بان امامه الرجل الذي سيتقلد ، بعد ثمانية عشر عاماً ، مصائر الجمهورية الجزائرية المستقلة .



الفصل الثالث

العوْدة إلى الجزائر



بعد «سيان » استبُدل الفيلق الخامس المغربي ووضع في الاحتياط للاسهام في احتــلال فرنسا . وعندئذ حصلت بصورة استثنائية على رخصة لزيارة عائلتي في مغنيه . ولما انتهت رخصتي التحقت بمستودع وجدة حيث وجدت بكل سرور المساعد الفونسي الذي قال لي على الفور :

– لن أتركك تسافر . انني احتاجك لتدريب «الزرق » .

وفي وجدة انتهت اليّ اصداء احـــداث ١٩٤٥ [١] . لقد تأثرت بعمق بالقمع الوحشي الذي عقب الثورة . وكان هذا القمع يريد ان يقول ، بكل وضوح ، ان الاستعمار كان مصمّماً ، بعد نهاية الحرب ، على ان لا يتخلى للجماهير الجزائرية عن شيء على الاطلاق ، وعلى ان يحتفظ بتسلطه عليهـــا بالارهاب .

كنت أتأمل العبرة من هذا الدرس المرير عندما كان رؤسائي يقترحون

---

(١) يشير بن بلـّه هنا لاحداث ٨ ماي (ايار) ٤٥ التي خرج منهـــا الشعب الجزائري محتفلا بهزيمة المحور الفاشي – النازي وحاملا العلم الجزائري ، وكان رد الاستعماريين هو تنظيم المجازر بسطيف وبعض مدن الشرق الجزائري حيث سقط ٤٥ ألف شهيد – المترجم – .

علي البقـــاء بالجيش الفرنسي . كانوا يريدون ارسالي الى مدرسة للضباط . ومعي ملاحظاتي واستحقاقاتي العسكرية . وبعـــد زمن قصير أتخرج برتبة ملازم . ورفضت متعللاً بوضعيتي العائلية وبضرورة عودتي الى مغنيه للاهتمام بأمي وشقيقتيّ . ولكن احداث جهة قسنطينة في الحقيقة هي التي لعبت في رفضي دوراً حاسماً . لقد احسست ان الاختيار بالنسبة لي قد تمّ . فالقمع الذي دارت رحـــاه في مدينة سطيف حفر خندقاً لا يعبر بين المجموعتين الأوروبية والجزائرية . كنت اشعر بانه يجب عليّ ازاء مجموعتي ان أحاول بكل وسيلة في مستطاعي ان احسّن مصيرها وان اجعل الظلم الذي كانت ضحيته ينتهي .

حالما حللت بمغنيه طلب مني ابناء وطني ان اسجل اسمي بقائمة الانتخابات البلدية التي كانوا يريدون تقديمها في الانتخابات . هذه القائمة لم تكن منسجمة، ولكنها كانت تتركب ، في مجموعهـــا ، من جزائريين ذوي نيات طيبة . وقبلت ان اشترك فيها .

كان منتخبو الدرجة الثانية (وبهذا التعبير اللطيف ، يُخَصُّ الجزائريون) والأوروبيون يشكلون ، بطبيعة الحال ، الدرجة الاولى . والاوروبيون كانوا هم الأولين ، وكانوا عازمين تماماً على ان يبقوا الأولين . لأن قانون الدرجتين هذا لم يكن له من هدف إلا تنقيح الانتخابات العامة : وهكذا كان عشرة ملايين جزائري ينتخبون في كل الجزائر ثلث المستشارين البلديين ، بينما مليون أوروبي كانون ينتخبون الثلثين . وكان منتخبو الدرجة الثانية في كل مقاطعة اقلية بطبيعتهم ، وقـــد ُخفـّضوا لدور « الجزائريين الذين تحت الطلب » ،

شهود سلبيين، ضعفاء ومستسلمين لادارة الدرجة الأولى، «بني-وي-وي[1] » دائمين مرصودين ليقدموا للنظام الاستعماري ضمانة تمثيلية ديموقراطية هزلية . واعترف باني أشعر الآن بالسخرية العميقة عندما أسمع نفس السياسيين الفرنسيين الذين ابتدعوا مؤسسة الدرجتين العجيبة يأخذون اليوم على الجزائر الجديدة أنها لم تكن ديموقراطية بالقدر الكافي ... الديموقراطية الحقيقية توجد عندنا في القاعدة: انها تسمى التسيير الذاتي. اما الأخرى – ديموقراطية القوانين الانتخابية المصنوعة حسب الطلب ، والتسويات الانتخابية Apparentements بين الدرجتين ، والتوزيع الجبلي للدوائر الانتخابية – فاننا ندعها لهؤلاء السادة ...

منذ الجلسة الأولى للمجلس البلدي بمغنيه ، كان واضحاً بان منتخبي الدرجة الأولى ، الأقوياء بأغلبيتهم العضوية ، اذا جاز القول ، لا يريدون « تفويض » أية مهمة لمنتخبي الدرجة الثانية.وكان هذا يعني رفض مشاركتنا في ادارة المدينة الصغيرة ، ومنعنا ، بالنتيجة من ان نكون نافعين للذين انتخبونا . وعندئذ استقال جميع منتخبي الدرجة الثانية ، وفورياً أعيد انتخابهم من منتخبي الدرجة الثانية . جلسة جديدة في المجلس البلدي وطلب جديد لتفويض المهام . فرفض جديد فاستقالة جديدة جماعية . فانتخابات جديدة . وهكذا عدنا ثلاث مرات متواليات امام المنتخبين .

وفي كل مرة كان عداء الدرجة الاولى لنا – وبالاخص لشخصي ، اذ كانوا

---

(١) عبارة شائعة عند الجماهير في المغرب العربي تتركب من لفظ عربي : بني ولفظتين فرنسيتين : وي – وي بمعنى نعم – نعم . ويشار بها لفئة السياسيين الرجعيين الذين لا يسمعون المستعمرين الا الطبل والزمر – المترجم – .

يعتبرونني رأس الفتنة والعنصر الاكثر تصلباً - يزداد . لان منتخبي الدرجة الاولى لا يستطيعون بمفردهم لا الادارة ولا التصويت على الميزانية. ورغم انهم اكثرية فقد شلهم غيابنا . ونحن الاقلية لم يكن لنـا اي حق الا ان نقول : نعم ، ولم تكن لنا طريقة اخرى لقول : لا . الا ان نستقيل. لم يكن امامنا من خيار الا قبول كل شيء او رفض كل شيء .

وأحس شيخ المدينـــة السيد جيبرود بكل عبث الوضعية . لقد كان اشتراكياً من الحزب الاشتراكي الفرنسي (حزب غي موليه) لكن الاشتراكية من هذا النوع تذكرنا ، نحن الجزائريين ، مـع الاسف باوجه جد نحيسة ... كان جيبرود رجلاً شجاعاً ، ولكن لكي نحصل على تفويض ببعض المهـام من هذا « الاشتراكي » كان لا بد من ثلاثة انتخابات للقادة . وفي الثالثة رضخ . او بالاحرى بيّت خدعة. بما اننا كنا نريد «مهامّ» حسناً،فانه سيعطينا إياها! وحتى ذلك الحين كان مقتنعاً ككل فرنسيي الجزائر « باننا لا نعرف عمـل شيء. » وباننا « لن نستطيع الاستغناء عنهم » لقد كان يفكر بتعجيزنا تحت اثقال العمل والمسؤوليات ولكن يا لاخيبة ! لقد قبلنا كل المهـام ولكن لم نعجز .

وحصلت على التموين والبطاقات ، وفي ذلـك العهد كانت مهمتي تشكل الجهاز الجوهري للادارة البلدية ، لان كل شيء كان ما يزال مقسطاً. بالتأكيد تقسيط المعاش لم يكن يضايق الاغنياء . لان النقود تشتري كل شيء ولكن الفقراء لم يكن لهم الا تذاكر البطاقات ، وبدون تذاكر لم يكونوا قادرين على الحصول على شيء . لقد كانت هذه هي حالة السواد من الفلاحين الفقراء الذين هجروا الريف وتدفقوا على المدن ، على امل ان يحصلوا على قطعة خـــبز ، وبعض حبـــات التمر ، وحفنة من الدقيق ، ولم يجدوا مساكن في مغنيه

فعسكروا في المغاور على امتداد الوادي ، في حالة من الاملاق والعـــري لا توصف . والى المجاعة اضيفت حمى التيفوس التي كانت تواصل فتكها بالجماهير الناقصة التغذية . في مدينة صغيرة مثـــل مغنيه يسكنها اقل من ١٠٠٠٠ ساكن كانت الحمى تميت عشرة اشخاص كل يوم . امـا عالم البشر الذين كانوا يموتون في المغاور فقد كان مجهولاً عندنا. لقد وقّعت بدون تردد لهؤلاء البائسين آلافاً من بطاقات التموين التي لم يكن من حقي توقيعها . لم ابال بذلك كثيراً. لانه اذا كان القانون يقول : لا . فان الافواه الجائعة كانت امامي .

كنت اعمل من الصباح الى الليل . اذهب لارى النـــاس في مساكنهم . واهتم بمشاكلهم . ويعلم الله كم كانت كثيرة ! ولكن كنت اعمل ، وكان لدي الانطباع باني مفيد . لقد كانت هذه الفترة حافزة لي بشكل فائق . كنت في صحة بدنية ممتازة ، وكانت معنوياتي في اوجها ، استطيع ان اقول اني كنت ما زلت أحيا على حماس كاسينو . في البداية كانت المشادات مع شيخ البلدية بلا حساب ، ولكنه ، كما قلت ، كان رجلاً شجاعاً . ولقـد انتهى ، من مرافقتنا ومشاهدتنا نعمل، الى تجاوز مسبقاته، وتوصلنا الى تفاهم . إن المتاعب لم تكن تأتي منه ولكن من السلطة العليا .

ولأني لم اكن مستشاراً بالمجلس البلدي وحسب ، ولكن مناضل يحرس حركة انتصار الحريات الديموقراطية ، والسمعـــة التي اعطانيها عملي اليومي لفائدة مواطني . جعلت ، في شهور قليلة، عدد المنخرطين في الحزب يتضاعف وغدت مغنيه اقطاعة للحزب. وهذا ما لم يكن يغفره لي لا المتصرف الفرنسي ولا خدمه الجزائريون الباشا آغا والقائد - .

ذات يوم ، جاءني احد اصهاري ، القاطن بمغنيه ، مهموماً ، وقال لي :

– احمد ! ان فلاناً احتل مزرعتك وزعم انها له .

قلت له : – سأخرجه منها في الحال .

فعاد صهري وقال ، رافعاً يده اليمنى :

– احترس، انني اشعر وكأنهم نصبوا لك فخاً. إن هذا الرجل في حد ذاته ليس خطيراً فهو بدون ساق . ولكن اقرباءه لصوص وقتلة ، لم يعودوا إلا منذ زمن قليل من كيان [1] . الله يحفظك !

ذهبت لأرى الرجل الكسيح ، لقد كان في الواقع يحتل منزلي ، وقد استقبلني ، كما لو كان في منزله الخاص ، محفوراً بزوجتيه . وقصّ عليّ قصة طويلة جد مشوشة لاثبات ان مزرعتي كانت ملكه . بالطبع لم تكن له اية وثيقة لدعم أقواله . ولكن ، مع الأسف ، انا ايضاً لم تكن لي ايضاً وثائق . ارض السكان الاهليين ، التي يعود حوزها الى جزائر ما قبل الاحتلال ، لم تكن لها رسوم . إن الحوز الطويل هو وحده سند الملكية : إن مزرعتي كانت لي لان والدي فلحها ، وورثها عن ابيه وهلمّ جراً ... ومن هنا تأتي المنازعات العديدة ، ذلك انه كان دائماً من السهل لرجل سيء النية ان يدعي بان جد جده نُهبت أملاكه من طرف جد جدك في نزاع على الارث . لقد كانت الادارة الاستعمارية بالطبع تلعب دوراً في هذه النزاعات واحياناً هي التي تثيرها ، لتحض – ليزانديجان – « الطيبين » على حساب ليزانديجان « السيئين » ...

بعد التأمل بـدا لي انني صُنّفت في عداد هؤلاء الأخيرين . لان الرجل

---

(١) مكان في جزيرة غيان ، المستعمرة الفرنسية ، كانت المحاكم في عهد الاحتلال تنفي اليه المجرمين الخطرين – المترجم – .

الكسيح ، رغم انه كان يموت من الخوف بحضوري ، كان يبرهن ، مع ذلك ، على ثقة بالنفس . لم يكن مصدرها فقط ، فيما خيل الي ، اقرباؤه الذين عادوا من « كيان » .

وكنت كلما ازددت استماعاً اليه ازددت اقتناعاً بان صهري كان على حق ، ان القضية من اساسها قد دبرت من الادارة. اذا قبلت الوضعية ، فاني أجرّد من ارضي ويسقط اعتباري عند مواطنيّ [1] . واذا تصرفت بعنف ، فان اقرباء الكسيح حاضرون لتصفيتي جسدياً . وسوف يحاكمونهم صورياً . فلا شيء اتفه من قتل « انديجــــان » من طرف « انديجان » آخر ! وسيجدون شهوداً ليؤكدوا ، باغلظ الايمان ، ان القاتل كان في حالة دفاع شرعي .

فكرت في كل هــذا وانا استمع الى الكسيح ، وفجأة استعدت كامــــل هدوئي . ومن الغريب اني لم اعد اذكر اسمه . ولكني ما زلت اراه بسحنته المذعورة والمتشامخة في نفس الوقت ، ووراءه زوجتاه ، اللتان كانتــا اقرب للموت منهما للحياة . ذلك لاني كنت قد رفعت صوتي ، بالاخص ، في البداية وبعد لحظة صمت ، نظرت للرجل ثم قلت له : « انتظر ، سأهــــتم بك » . واستدرت للخروج . واذكر اني وانا اصفق الباب ورائي تساءلت : لمـــاذا يحتاج ، وهو كسيح ، لامرأتين ؟

استعملت كل الوسائل القانونية لاسترجاع مزرعتي . فاصطدمت بجدار . وكان آخر مَسعاي ان طلبت مقابلة المتصرف الفرنسي ، والطريقة الـــتي استقبلني بها لم تدع لي اي امل . لقد كان يشعر بالانتصار . وعيناه تقدحان تهكماً . ولم يفارق في اي لحظة هــذا الموقف الساخر، حتى عندما ذكّرته

(١) في المغرب العربي تحظى الارض ، بالاخص من الفلاحـــين ، بقيمة متعالية . والتفريط فيها يعادل في المفهوم الشعبي ، للارض والشرف ، التفريط في الزوجة . المترجم

بخدماتي في الحرب . كان جلياً ان وسامي الحرب ، والاستحقاقات الاربعة، والوسام العسكري ، لا شيء من ذلك كله كان له حساب عنده . شيء واحد كان يهمه هـــو موقفي في مغنيه والتقدم الذي حصل عليه حزب « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » . وعندما قلت له وانا أهمّ بالانصراف :

– ولكن في النهاية ، الى اين تريد ان تصل بذلك ايها السيد المتصرف ؟

ردّ علي بنفس اللهجة التهكمية :

– سترون ذلك جلياً .

ثم اضاف : –تعتقدون انكم جد ماكرين ، بن بلـّه، ولكن سنبرهن لكم اننا اكثر منكم مكراً ..

وادركت عندما غادرته اني خسرت مزرعتي .

عندما عدت الى مغنيه فكرت في الوضعية ثم قررت ان انتقل الى الهجوم. وذات صباح استصحبت عربة شحن فارغة الى المزرعة ، ثم ، تقدمت نحـو الدار ، والمسدس بيدي ، وفتحت الباب وقلت للكسيح بلهجة آمرة :

– اني اعطيك عشر دقائق لترحل . احمل معك أثاثك وامرأتيك .

ولم يكن وحيداً ! فقد كان معه احد اقربائه العائدين من كيان، ولكن الهجوم باغتهما ، فلم يردّا الفعل . ومرّ كل شيء بسلام . اخـذوا الاسمال . وادوات الطبخ ، وركبت الزوجتان والكسيح وقريبه في مؤخرة العربة مع الاثاث ، وانطلقت بهم العربة وبقيت انا مولى الارض .

هذا الانتصار السهل تركني اتوقع هجوماً مضاداً .

وفعلاً بعد ثلاثة ايام جاء الهجوم . كنت نائماً بالبيت عندما سمعت في منتصف الليل ضجيجاً . كانوا يرمون نوافذي بالحجر ولم اتحرك . والى الحجر

انضافت الشتائم . فلم أردّ ايضاً . وطوال الليل كانت الحجارة والتحدي يتعاقبان .

كانت خطتهم واضحة : احدهم كان يرميني بالحجـــارة ، بينما الآخر ، في كمين ، يسدد سلاحه الى بابي ، مستعداً للإطلاق عندمـــا اظهر ، مندفعاً ، على العتبة .

انتظرت النهار. كنت أريد ان اتمكن من الرؤية الواضحة عند خروجي. وأعددت سلاحي . وكان مسدساً عَديدَ الطّلق من نوع ب ٣٨ ، ذا انبوب جد طويل يستطيع ان يصيب بدقة متناهية على بعد ٢٠٠ متر . عندمـــا طردت الكسيح من غرفتي كان بيدي مسدس اصغر ٦،٣٦ . وربما فكر قريبه ان ذلك كان هو سلاحي الوحيد . ونتيجة لذلك فقد كمنوا على بعد نحو ٦٠ متراً من داري . وهو مـــدى مَرْمَى بنادقهم « Chassepots » ، ولكنه مدى لا يطوله السلاح الذي كانوا يظنون انه سلاحيْ الوحيد. وعندما اخرج كانوا يفكرون انهم سيكونون بمنجى من رصاصي ، بينما أكون هدفاً لرصاصهم . وكما يرى المرء ان هؤلاء القتلة كان عندهم شيء من التجربة في نصب الكمائن .

تواصل هطول الشتائم والحجارة . وظللت في الظلام جالساً على كرسي ، جامداً وصامتاً وبيدي المسدس ب ٣٨ . واذا كان الانتظار ابتلاءً لي فقد كنت أعرف ، بصفتي شاركت في كاسينو ، بانه كان ابتلاءً لهم ايضاً .

مع طلوع الفجر انتقلت الى الهجوم . فتحت الباب بغتـة ، ووثبت ثم انطرحت ارضاً . وأزّت رصاصتان فوق رأسي دون ان تصيباني . وبذلك كشفتا لي الموضع الذي أطلقت منه النار ، فقمت ثم تقدمت في اتجـــاهه .

وأطلقت شحنة الرصاص Chargeur برمتها ومرة واحـدة . وانبطحت من جـديد على الارض . لا شك انهم بوغتوا على نحو مرعب ، إذ أنهم كانوا يعتقدون اني مسلح بـ ٦,٣٦ ، فاذا هم يرون وابلاً من الرصاص يصل اليهم . أدخلت شحنة رصاص جديدة في سلاحي ، وقفزت من جديد . أطلقت النار ثم نمت على الارض . سمعت صراخاً ووقع أقدام راكضة . وأدركت انهم كانوا يفرون . وانطلقت في أثرهم . لم أكن أريد ان اترك لهم الوقت لشحن بنادقهم من جديد . ولكنهم كانوا يهربون بدون تفكير في العودة . ورأيت دماً على دغل . لا شك اني جرحت واحداً منهم . ووقفت لاهثاً لأني كنت قد أصبت بالوخم Paludisme وكنت لا استطيع مواصلة العَدْو .

عندئذ نزلت الى القرية لطمأنة عائلتي وأصدقائي . وأثناء الطريق رأيت « القائد » [1] . كان بديناً ومنافقاً . ابتسم لي من بعيـد كمن يتحبب لي ، وحيّاني ثم سألني عما حصل ، بيـنما كان يسترق النظر ، وهو بالغ الجزع ، للمسدس ب ٣٨ الذي كنت ما زلت محتفـظاً به في يدي . إن حضوره ، وتصنعه لموقف الحواري المخلص ، وأسئلته المريبة أتمّت اقتناعي : لقد كان هو على اتفاق مع المتصرف الفرنسي ، الذي دبر المكيدة قلت له ذلك في عبارات شديدة لأني كنت ما زلت في حرارة المعركة . وأسماء « الخائن » و « المباع » كانت ألطف الأسماء التي سميته بها . وكان يشعر بأنه وحيـد معي في هذا الطريق . ولم يحاول حتى أن ينكر التهمة . لقد كان يتلقى شتائمي ، مصفراً ، ووجنتاه ترتعشان ، وبدون أية كرامة ، ولم يجرؤ حتى على رفع عينيه .

(١) اسم يطلق على نوع من الموظفين الاهليين العملاء في الجزائر وتونس والمغرب .
ـ المترجم ـ

وفي طريقي الى مغنية ، أمعنت التفكير. لقد كنت منتصراً ولكنه إنتصار غالي الثمن . لقد جرحت رجلا : وهذا سبب كاف لاعتقالي والقائي في السجن . قررت إذن أن أغادر المكان على التو . وبمغادرة مغنية خسرت ملكي ، ولكني احتفظت بملك آخر أثمن : حريتي . وكنت أحتاج لهذه الحرية لخدمة حزبي وقضية الاستقلال .

وصلت الجزائر العاصمة وغيرت اسمي . وابتداء من هذا التاريخ ١٩٤٧ ، أصبحت مناضلا سرياً . وظللت كذلك الى يوم اعتقالي .

* * *

تحت ضغط الأحداث اصبحت حركة انتصار الحريات الديموقراطية في عنفوان الأزمة ، وكان الفراق يتضح أكثر فأكثر بين قيادة الحزب ومناضلي القاعدة الأكثر تصميماً وعزماً. وهؤلاء فرضوا على القيادة إنشاء منظمة سرية أنيطت مسؤولية الإشراف عليها بي . وكنا نسميها المنظمة الخاصة L'organisation Spéciale . وقد أصبحت في النهاية حزباً داخل الحزب ، وكانت أهدافها كما كانت روحها تختلف عن أهداف مصالي [1] وروحه . وهذا الأخير في الواقع كان ينخرط أكثر فأكثر في الطريق الانتخابي . وكان يظن انه بفضل الانتخابات ستتطور الأوضاع ونصل الى ان نسمع صوتنا ، والى ان ننتزع شيئاً فشيئاً تنازلات من السلطة الاستعمارية . وكنت ، ككل مناضلي المنظمة الخاصة الشبان ، لا أرى في هذا المنظور إلا الأوهام . لقد كنا نتحرق للعمل ، لأن حوادث سطيف كانت قد اقنعتنا بان المشكل

---

(١) مصالي الحاج ، رئيس الحزب ، الذي كان عداؤه للعنف الثوري قد انتهى به الى الخيانة . يرمز على نحو كثيف ، صارخ وملموس ، لإفلاس القيادات البورجوازية « الوطنية » في قيادة حتى الثورة الوطنية ضد الاستعمار — المترجم — .

سيطرح نفسه عاجلاً أو آجلاً في صيغ القوة والعنف . وانه ينبغي علينا ان نحضّر أنفسنا لذلك .

وان الانتخابات المزورة التي أشرف عليها « الاشتراكي » نايجلان Naegelen أكدت وجهة نظرنا. أبداً لم تُمثّل في الحياة تمثيلية هزلية لاقتراع ديموقراطي أكثر منها وقاحة . وسياسة القمع التي تلتها أكملت تنويرنا . ومن الممكن القول ان الادارة الاستعمارية قصدت من تنازلها الشكلي بجعل الجزائريين يقترعون ، ومن العناد الذي تكلفته لتزوير الانتخابات الاضرار بهم . ان كل ما يستطيع بيروقراطي استعماري ان يبتدعه من حقارات قد استعمل ضد اخواننا . لقد أغلقوا المقاهي العربية . وحرروا مخالفات ضد الفلاحين الذين يقودون حميرهم في الجانب الأيسر من الطريق ... هـذه التنكيدات الصغيرة التي كانت تعاد وتضاعف خلقت جواً مقيتاً. لقد كان هدفها ، بكل وضوح ، الاقتصاص منا جزاء على « ادعائنا » ، وبالفعل كان لنا ادعـاء مجحف ولا يقبل الغفران ، هو رغبتنا في الاقتراع ، حتى لو كان ذلـــك في انتخابات مزورة. لقد أصابنا من هذا الاقتراع المزيف ما يسمى في الاصطلاح العسكري باكتشاف الانسان قدر نفسه Une Reprise en Main . وهذا الاكتشاف كان قاسياً ومضبوطاً في وقت معاً ، مرصوداً لإفهـام - لانديجان — مرة وإلى الأبد ، بان « يحتفظ بمكانته » : الأخيرة في الأمة .

لقد كان من اختصاصي ان اجوب البلاد من قريـــة الى اخرى ، وازور المناضلين واحاول اقناع الانصار بالالتحاق بنا . وهذه التنقلات كانت سرية. لم اكن انزل ابداً في فندق ، بل دائماً عند مواطن . ولا ابدو الا قليلاً جداً. لقد وجدت عند الفلاحين تفكيراً قريباً جداً من تفكيري . ولما كانوا يجهلون وجود المنظمة الخاصة ، فانهم كانوا يحكمون على عمـل حركة انتصار الحريات

الديموقراطية من خلال خطب قادتها وكانوا قد قرفوا منها .

ذات يوم قال لي فلاح : « اسمع ، يا ابني ، هل تعـلم ماذا يقع عندما تعرف الادارة ان واحداً منا عضو في حركة انتصار الحريات الديموقراطية ؟ انها ترسل اليه رجال الدرك « الجندرمة » فيخرجونه من داره ، بعد ان يضربوه ويهينوه امام زوجته ، ويرمون به في السجن بلا محاكمة . وعندما يخرج منه يضطهده القائد والباشا آغا . هـذا هو النظام . اننا مسحوقون ، معصورون ، ومطحونون . وبعد هذا ، يتحدث الحزب عـن الانتخابات . ماذا سيعملون بالانتخابات ؟ ليذهبوا يتبخترون عند الفرنسيين ؟ وليدخلوا في بلدياتهم ، ومجالسهم العامة ، وبرلماناتهم ؟ والى اين سيقودنا هذا ؟ الى تقدمات صغيرة ، نعم ، بعد قرن ! ولكن بعد قرن سنكون جميعاً قـد متنا لا ، يا ابني ، لم نعد نريد ان نسمع الحديث عن الانتخابات ! ان ما يلزمنا اليـوم هو البنادق » .

هذه اللغة كنا نسمعها في كل مكان ، وبدورنا لم نقصّر في إسماعها ، بكل فظاظة ، لقادة الحزب ، ولكن دون ان ننجح في انتزاعهم من الانتظارية Attentisme . ان افضـل تعريف لمواقفهم هو الهرب . كانوا يتوارون امام الاختيارات الضرورية . وكانت الثورة المسلحة ضد النظام الاستعماري تخيفهم وكانت ثورة الجماهير تخيفهم اكثر . كانوا يرجئون دائماً للمستقبل القرارات التي لا مناص منها . ويعتصمون في انتظار ذلك ، بالانتخابية L'électoralisme الزائفة . كما لو كانت الأنتخابات ما زالت جدية ،او جدية السلطة التي تعطيها المنتخبين ! ولكن الاطماع الانتخابيه للحزب ، اذا ووجهت بالسحق العارم ، والذي لا أمل فيه ، ضد شعبنا ، فانها كانت مجرد أوهام .

إن القادة لم يكونوا حساسين إلا لمظهر واحـد من نفور الجماهير منهم : فالانخراطات بالحزب كانت قد توقفت . والاشتراكات[1] Les Cotisations لم تعد تدخل . ذلك ان الذين كانوا يدفعون ، والذين يضحون من أجل أن يحيا حزب ، هم دائماً ولا يتغيرون : المتواضعون ، والفقراء ، والفلاحون ، وهؤلاء كانوا يهجروننا اكثر فأكثر. ما زلت أذكر أن مالية الحزب انخفضت الى الدرك الأسفل حتى أننا كنا نلقى صعوبة في دفع أجور الموظفين الدائمين بالحزب .

انتهى المناضلون ، الذين حزت في نفوسهم وضعية جد منكوبة ، الى ان يرغموا مصالي وعصابته عام ١٩٤٩ على عقد مؤتمر للحزب . وبسخرية تاريخية مدهشة عقد المؤتمر في الجهة التي كان يسيطر عليها الباشا بو علام [2] .

ونزلنا ضيوفاً على المسمى جيلالي الذي استقبلنا في ضيعتــه بعز الدين . وجيلالي هذا خان ، فيما بعد ، الحزب ، وأصبح قواداً للبوليس تحت اسم خابوس . ولكن في ذلك العهد ، لم يكن بعد قد انخرط في طريق النذالة .

كنا حوالي ستين ممثلاً جاءوا من أنحاء الجزائر ، ومنذ الجلسة الأولى بدا واضحاً بسرعة ان انتظارية مصالي ورفاقه ستتألب عليها الأغلبية . ان التاريخ تكراراً يجري . الذين كانوا يؤلفون هذه الأقلية ، وهم محافظون بغريزتهم ، وانتهازيون بطبعهم ، وغير متأكدين من شيء على الإطلاق ، كانوا في ١٩٤٩ يريدون « البقاء في الشرعية » وتجميد الحزب في الانتخابية الزائفة،

(١) الاشتراكات مستعملة في المغرب العربي كله ويقصد بها المبلغ النقدي الذي يدفعه دورياً وبانتظام المنخرط بمنظمة حزبية او نقابية الخ .. - المترجم -

(٢) اقطاعي خائن . تزعم ، اثناء حزب التحرير ، الثورة المعاكسة السياسية . وما زال الى وقت قريب : في كتاباته ، ينادي بالجزائر الفرنسية . - المترجم -

أجدهم اليوم أيضاً في الجزائر المستقلة ، مناهضين لكل الاجراءات الثورية التي تتخذها حكومتي ... انهم دائماً نفس النوعية : شديدو الفصاحة ولكنهم ايضاً مصممون على عدم التحرك .

في عام ١٩٤٩ اتخذ المؤتمر بدونهم وضدهم قرارات خطيرة . فقرر انه يجب على الحزب ان يضع على ذمة المنظمة الخاصة الاساسي من ماليته . ولكي يتأكد المؤتمر من عدم ابقاء هذا الاجراء حبراً على ورق ، فقد عينني مسؤولاً عن التنظيم السياسي للحزب ، وفي الوقت نفسه ، مسؤولاً عن المنظمة الخاصة .

لقد دقت ساعة العمل . كان هناك صنف من الاشخاص العديمي الضمير الذين ضايقوا ، عهدئذ ، دعوتنا. كانوا عصابات انتدبهم الباشا آغاوات والقياد ليُبقوا تحت الارهاب النواحي التي يتصرفون فيها. واكثر هذه العصابات شهرة كانت عصابة الباشا آغا آية علي بجهة القبائل . كان هؤلاء اللصوص اشقياء من كبار قطاع الطرق ، وكانوا ينهبون ويقتلون بدون اي قصاص على الاطلاق . وهؤلاء القتلة كانوا يتدخلون ، لتصفية مناضلينا ، في كل الحالات التي لا تريد فيها الادارة ان تلوث يديها ، حسب التكنيك الذي اتخذ ضدي انا نفسي بمغنيه ، والذي سبق ان تحدثت عنه .

وقررت المنظمة الخاصة التي خرجت من مؤتمر ١٩٤٩ مدعومة واكثر قوة ان تطارد هؤلاء الاشقياء ، وحصلت ، لا بغير صعوبة ، من قيادة الحزب على الاذن بشن هجوم مضاد عليهم . لقد كانت عملية بوليسية عسيرة ولكنها ضرورية . غيَّرت بعض الشيء من جو الجزائر .

اذا كانت ذاكرتي دقيقة، فان المنظمة قررت في ذات الوقت تهديم التمثال الذي اقامته السلطات الاستعمارية لذكرى الامير عبد القادر . وقد بدا لنا

اقدام الاستعمار اذ ذاك على التظاهر بصداقة البطل الذي دافع عن استقلال الجزائر ضد غزاتها ، طوال خمسة عشر عاماً، بدا لنا كمحاولة لتدنيس ذكرى الامير العظيم . ولم ننجح تماماً في العملية ، ولكن محاولتنا مع ذلك اسهمت، على نطاق واسع ، في افهام الرأي العام مقاصد سلطات الاحتلال .

بيد ان المتاعب المالية للحزب واصلت شل جهودنا ، وكان المناضلون الشبان في المنظمة الخاصة مصممين ، مهما تكن التكاليف ، على الخروج من هذه الوضعية . لاننا كنا بدون مصالح خاصة ، لم يكن عندنا ازاء النقود تلك الحرمة البورجوازية المترسة التي كانت عند قادتنا، الذين كنا نقول لهم:

« اننا لا نعدم نقوداً في الجزائر ، وانما يجب ان نأخذها حيثما توجد، في البريد ، او في البنوك لنكن منطقيين مع انفسنا . اذا كنا على استعداد للتضحية بحياتنا في هجوم عنيف ضدّ المحتل ، فلا ينبغي ان نتخثر احتراماً امام خزائن ماله ».

وانتهى القادة على مضض ، بقبول مشروعنا بعد ان برأوا انفسهم سلفاً من كل مسؤولية .

هجمنا اولاً على بريد وهران . كنا نفكر ، على ضوء معلوماتنا الدقيقة ، اننا سنستولي على ثلاثين مليون فرنك،كان يمكن ان تملأ فجأة خزانة الحزب، وتمكننا من شراء السلاح . وفي الواقع كانت الغنيمة اقل اهمية بكثير مما كنا نقدر .

ولقد نُظم الهجوم بكثير من العناية ولكي نحوّل شكوك البوليس عن مناضلينا ، قررنا ان نعطي للقضية هيئة عملية اغتصاب مسلح Hold-up ، نظمه بيبرو المجنون Pierro-le-fou ، الذي كانت « مآثره » في ذلك العهد

تملأ الصحف . فاخترنا كمنفذين للعملية جزائريين شُقراً ، وكسوناهم على النمط الاوروبي ، وأمرناهم بان يتحدثوا باللهجة الباريسية .

انطلت الحيلة . وبدأت الصحافة بالاعتراف بان الهجوم كان على طريقة بييرو المجنون ولم تخفِ اعجابها من ان اللص قد اختار افريقيا الشمالية كمسرح جديد لعملياته . ولكن الحظ لم يدم . فان تلاقياً لا يصدق لصدف صغيرة قد لعب ضدنا .

لقد استعمل المنفذون في حمل الاوراق المالية حقيبة جد قديمة . وفي عجلة الفرار ، اشتبكت احدى رُزّتيها مع القفل . وحين انتزعت بعنف سقطت قطعة منها على مداس النعال في سيارة « تراكسون » التي استعملوها . وهذه القطعة رغم انها متناهية الصغر لم تفلت من الباحثين الذين جمعوها كوسيلة اثبات . بيد ان اي مَعْلم جدي لم يظهر . ومرّ زمن ، والتحقيق يدور حول نفسه . الى ان احيل احد ضباط الشرطة القضائية ، الذي كان قد شارك في البحث ، على الاستعلامات العامة . وهذا الضابط بينما كان يفتش منزل احد مناضلي حزبنا ، رأى فيه حقيبة راقتة . وقرر أخذها لاستعماله الشخصي . هذا النهب الصغير كان له بالنسبة لنا نتائج خطيرة لانه عندما وصل الى منزله وجد صعوبة في فتح الحقيبة ، وقد نظر فيها عن كثب فوجد ان قطعة من الرزّة كانت مفقودة . وعندئذ تذكر وسيلة الاثبات الصغيرة التي اشتغل عليها قبل شهور ، فاسرع بالحقيبة الى الشرطة القضائية وهناك عاين ان القطعة المفصولة تتلاءم تماماً مع باقي الرزة . وادرك عندئذ ، في لمحة عين ، ان الهجوم على بريد وهران لم يكن اغتصاباً تافهاً ، نظّمه اوروبيون ، بل عملية دبرها الحزب . وابتداء من هذه اللحظة بدأت الايقافات والتعذيب وانتهى الخيط الي انا .

كدت اوقف للمرة الاولى بالبريد المركزي بالجزائرالعاصمة في فبراير ١٩٥٠ ولكني نجحت في التملص ، بدفع الشرطيين والفرار . ورأيت انهـــم كانوا يطاردونني ، فأخرجت مسدسي من جيـبي ، ولوحت به من فوق رأسي ، ولكن بدون ان اطلـــق النار ، وبدون ان اتوقف عن الركض . وانثني الشرطيون عن مطاردتي لاني ابتعدت عنهم كثيراً . فضلاً عن انهـــم كانوا يخشون امكانية تبادل الرصاص معي .

ما هي الا استراحة قصيرة حتى اختطفوني ، بعد شهر ، من مخبئي الذي دلهم عليه خائن ، في الجزائر العاصمة .

كان البوليس قد اكتشف وجود منظمتنا ، ولكنه لم ينجح ، في نهايـــة الحساب ، الا في ايقاف جزء قليل من مناضلي الصدام Militants de choc ، بيد انه تعلم من ذلك ان يتحدث ، بما فيـــه الكفاية ، عن « مؤامرة » ، وكان ، بالطبع ، يتبجح بالتمكن من سحقها واحباطها في المهد .

وتملك قادة الحزب ، كما كنا ننتظر ذلك منهم ، خوف شديد ، فتبرأوا من محاولتنا . وفي الوقت نفسه احاطوني والمتهمين معي علماً بانهم يرغبون في ان تدور المحاكمة بلا ضجيج .

لم نمتثل للامر لان عملنا لن يكون له معنى الا اذا بررناه، جهراً وبوضوح ببواعث سياسية . ونتيجة لذلك فقد اتخذنا موقفاً كفاحياً من ألفه الى يائه . ومن متهَمين حوّلنا انفسنا الى متهِمين . واغتنمنا محاكمتنـا لتقديم الاستعمار للمحاكمة . وتمسكنا بهذا الموقف الهجومي حتى خارج جلسات المحكمة . من السجن الى المحكمة ومن المحكمة الى السجن كنا ننشد ، في جوقـــة وباصوات رعدية ، النشيد الوطني . حاولوا كل شيء ، الضغط والتهديد ، والعقـــاب

لأنهاء الاناشيد . وفي النهاية ، فان البوليس الذي لم يصل الى اسكاتنا، تدبّر امره لكي يجعلنا غير مسموعين . فاحاط سيارة السجن بسمط من الدراجات النارية ،التي ما ان نفتح افواهنا حتى كانت تأخذ،بأمر منالبوليس، في الضجيج . ولكن من حسن الحظ ان الدراجات النارية كانت تتوقف امام عتبة قصر العدالة ، واذ كنا ندخل الى قاعة المحاكمة او نغادرها لا نتخلف مرة واحدة عن رفع عقيرتنا بنشيدنا الوطني بحضور القضاة .

لم اشارك انا بنفسي في الهجوم على مركز بريد وهران ، ولكني اوحيت به وصرحت بصوت عال بمسؤولياتي امام القضاة . وحوكمت بثمانية اعوام سجناً . وعندما انغلق سجن البُلَـيْده علي وعلى رفاقي تنفّس قادة الحزب الصعداء . كانوا قد تخلصوا من مضايقين .

انهم يستطيعون الآن ان يغرقوا بكل طمأنينة في مباهج وسموم التسويات الانتخابية . وكان اول عمل سارعوا اليه هو الغاء المنظمة الخاصة – كانوا يظنون ذلك الى الابد ! ثم كان ان ُشتت ، بأمر منهم ، مناضلو قاعدتها وعزلوا واضطروا الى الهوان . وكانوا يحولون المسؤولين من قسنطينه (شرقاً) الى وهران (غرباً) ومسؤولي وهران الى قسنطينه . اما الاكثر نشاطاً فقد ارسلوا بهم الى فرنسا . اما الموظفون الدائمون الممتازون فقد تركوا عمداً بدون معاش . إن سويداني ، الذي مات فيما بعد بطلاً اثناء حرب التحرير الوطني ، اضطر ، لكي يعيش ، الى ان ينخرط كعامل فلاحي عند كولون بالمتيجة ، برفقة المناضل بو شائب الذي توفي .

اما انا ، فقد كنت وراء الابواب ، لا في زنزانة بل في قاعة وسيعة برفقة ستين مناضلاً. كان بابي سميكاً وقضبان الحديد التي تسد نافذتي كانت ضخمة .

ورغم هذا نجحت في الاحتفاظ بالاتصال مع الخارج . وهكذا علمت ان فرقة مكونة من مناضلين : مصطفى إخليف وبوديسه صافي كانا يحاولان تهريبي ، ولكنهما كانا يلاقيان مصاعب جمة ، وهذه الخطط كانت لا تفتأ تحبط وتُعاكس من طرف الحزب. وكان على إخليف وبوديسه صافي لكي ينجحا ان يستغفلا ، في وقت معاً ، تيقُّظ ادارة السجون ، وتيقظاً آخر ، كم كان عسيراً خداعه ، وهو تيقظ حزبي الخاص. ولكنهما مع ذلك لم ينهزما: لقد كان كل منهما مناضلاً استثنائياً ، مفعماً شجاعة وايماناً. إن بوديسه صافي ما زال حياً،وهو اليوم عضو باللجنة التنفيذية للاتحاد العام للعمال الجزائريين ، ولكن إخليف أسر غداة نوفمبر ٥٤ وحكم عليه بالاعدام . وأمرُّوه على المقصلة .

الفصل الرابع

الثورة



في نهاية مارس (اذار) ١٩٥٢ جاء بوديسه الصافي ليراني في مكان الحادثة بالسجن ، وبواسطة الحارس ناولني كيلو من الخبز لم يسلم لي الا بعد ان شُطر من الوسط ، مثلما هي العادة . انه روتين السجون الذي لا يتغير ولا يجدي : فقد كان احد طرفي الرغيف يحتوي على مبرد قوي .

وشرعنا في العمل ، بمشاركة ستين سجيناً سياسياً ، كنا نعيش بينهم . واذا كان لم يوجد بينهم خائن واحد ليشي بنا ، فذلك يبرهن على قيمة مناضلينا في المنظمة الخاصة ، وعلى العناية التي تم بها اختيارهم .

اذا كنت ما زلت اذكر ، فان الاخ كيركبان بن ناصر هو الذي كان ، يوماً بعد يوم ، يبرد قضبان نافذة كانت تشرف على الباحة . لقد كان ميكانيكياً بالمهنة . وأتم مهمته بمهارة رائعة . وبينما كان المبرد يفل ، شيئاً فشيئاً ، الحديد الذي كان يفصلنا عن الحرية ، كنا نحن الستين سجيناً ننشد في جوقة لكي نغطي ضجيج المبرد .

وكان قد اتفق الرأي على ان يحاول اثنان منا فقط الفرار : محساس[1]

(١) سماه بن بله وزيراً للاصلاح الزراعي وبعد انقلاب ١٩ جوان ١٩٦٥ انضم للعقيد بومدين . - روبير ميرل -وقد استقال أخيراً وانضم الى احدى المعارضات السرية - المترجم -

وانا . كانت الباحة مغلقة بجدار ارتفاعه خمسة امتار تقريباً . ولكن هـــذا الجدار كان مضاعفاً على بعد صغير بجدار ثان اكثر علواً ، وبين الاثنين طريق يطوف به خفراء السجن ليلاً . ولقد اتفقنا على ان نصعد على هرم من السجناء لاجتياز الجدار الاول ، وبأن يلقى لنا حبل من الخارج لنجتاز الجدار الثاني .

ان في كل فرار مفاجآت سيئة على العموم . وقد اجتزنا بدون صعوبات العقبة الاولى . وعندما وصلت الى اعلى الجدار الاول ، رأيت بسرور اقوى من أي تعبير ، بان الحبل معلق على طول الجدار الثاني في المكان الذي اتفقنا عليه . ولكن اكتشفت في الوقت نفسه ، بضيق ، عمـــوداً مكهرباً عرضه متر ونصف تقريباً ، يمتد على الجانب الآخر من الجدار الذي كنت اجثم على قمته . وعندئذ فكرنا بانه من المستحيل ان نتعلق بالحبل بايدينا وننساب معه الى الارض . كان يجب ، اذن ، ان ننتصب على الجـــدار ، مجازفين بالموت بصدمة التيار الكهربائي او بكسر فخذ ، وان نثب على عرض متر ونصف وعلى عمق خمسة امتار ، لنلملم انفسنا من على ارض طريق الخفراء المبلطة .

جربت حظي انا اولا لاني كنت في صحة ممتازة . ونجحت تمام النجاح ، ولكن محساس لم يكن محظوظاً . فقد التوت رجله ، وتضور ساعده عنـــد الهبوط . وفهمت وانا ارفعـــه بأنه سيكون من الصعب عليه اجتياز الجدار الثاني . امسكت اولاً بالحبل ، وبالارتكاز على الجـــدار بكلتا ساقي ، على طريقة متسلقي الجبال Alpiniste ، بلغت القمة . كنت أُرقص الحبل لاشعار محساس بأن دوره قد آن . لم استطع ان ارى وجهه لان الليل كان بهيماً ، ولكن بسماع تلاحق انفاسه ، ادركت انه كان في تعب شديد . كنت مفرجاً ساقي على الجدار . وتركت فخذي يتدلى عمودياً مع الحبل ، حتى يستطيع ان يتمسك به عندما يصل الى مستواي وعندئذ استطيع ان انحني وامسكه

من يده حتى اساعده على الصعود الي واخيراً رأيت وجهه يظهر كبقعة صفراء انفصلت من الظلام . ورأيت يده على بعد اقل من ٤٠ سنتيمتراً من كعبي ، ولكنه لم يفلح في الوصول اليها ، فسقط الى نقطة انطلاقه الاولى . ومن سماع صفير انفاسه المتقطعة في الظلام ، ادركت كم كان قد كلفه ذلك من الجهد ، فانحنيت وقلت له في مثل الزفرة « اعد كرة اخرى » .

ورأيته مرتين اخريين يظهر على اقل من متر من كعبي ثم يسقط . كنت احس باني يائس لانه كان من المستحيل علي ان انجده . كنت منحنياً عليه بالقدر الذي استطيع دون ان افقد توازني . وكل ما كنت استطيع عمله ، كان انتظار صعوده الى فخذي . وفي المرة الثالثة ، قال لي من الاسفل في زفرة :

— امش ، امش ، احمد ، انت نجوت .

قلت له : — « لا ، حاول مرة أخرى » .

احسست الحبل يتوتر تحت اصابعي ، وادركت انه يقوم بمحاولة رابعة . كنت اشك في نجاحه . لاني لاحظت كيف كان التعب ، في كل مرة ، يقصيه اكثر من هدفه ، ولكن ارادة رجل محاصر قادرة على المعجزات . اندهشت لمرآه وهو يثب من الظلام فجأة ، بقوة جديدة ويستمسك بكعبي. وقد ملأني نجاحه فرحاً. فأمسكت يده المتصببة عرقاً بين يدي وسحبته،وفي اقل من لحظة كان جالساً امامي على اعلى الجدار ، مُستَنـْزَفاً ، منثنياً الى شطرين غير قادر على شيء آخر . لم يبق الا ان نرمي الحبل من الجانب الآخر وننزل الى المدينة النائمة . ان الحرية لم تعد الا لعبة اطفال .

كان اصدقاؤنا بانتظارنا.وكانوا يعلمون ان فرارنا لن يلبث ان يُكتشف،

وان القوات البوليسية ستُستخدَم لمراقبة الخطوط الحديدية والطرق . وجاء الى خيالهم ان نختبيء في مكان لا يخطر على بالهم البحث علينا فيــــه ، عند مناضل يسكن على مسافة قصيرة من السجن في بيت صغير تكتنفه حديقة . ولسوء الحظ كانت زوجة هذا المناضل حبلى ، على ابواب الوضع ، وفي غمار التأثر بمعرفة اننا مختفيان عندها ، بينما كانت الاذاعة والصحافة لا تتحدث الا عنا ، وضعت مولودها ، وضايقنا ذلك بشكل مميت.

ما العمل ، والاحتفال التقليدي الذي يرافق الولادة عندنا لا بد منه ؟ ان هناك مجهولين يختفيان بالبيت ، واذا الغي الاحتفال فان الجيران سيشكون فوراً بشيء ما ؟

وبعد كل حساب ، اختار المناضل اقامة الاحتفال ، وفكر في اسكاننا بكوخ من القصب ، في اقصى حديقته . ولكي يقصي عنا الاطفال ، الذين ينطلقون بعد الاكل لاشباع فضولهم في كل الزوايا ، فقد أعطانا ، للمراقبة ، كلباً هو اكثر كلابه ضراوة . انني لم ار في جنس الكلاب كله كلباً اقبح وانبح واشرس منه . كان لا بد من يوم كامل من التهديد والملاطفة والضرب لا اقول لكي يقبلنا بل لكي يتسامح بحضورنا . ثم انه كان يهرّ كامل الوقت الذي فرضنا فيه عليه ، ملقياً علينا من حين لحين نظرات عدائية ...

كنا لابدين على فراش وثير ،نسمع كل ما كان يدور بين النساء من حديث في المطبخ المجاور ، وكان الاطفال يجولون قريباً جداً من كوخنا ؛ ولكن الكلب كان ، كلما اقتربوا ، يرفع عقيرته بنباح مسعور ، وعيناه تلتهبان وشعر رقبته مقشعر . لقد كان في حالة نخشى فيها ان يرمي بنفسه علينا في سَوْرة غضبه .

ومما زاد الامور تعقيداً ان محساس كان قد اصيب بزكام اثناء الفرار . وكانت نوبات السعال الرهيب تأخذه من لحظـــة الى اخرى . وكنت اراه يستحيل الى لون القرمز من الجهد الذي كان يبذله لكتم السعال العنيف ، ولم يستطع الا ان يقول لي فقط : « الوسادة » وفوراً غطيت رأسه بالوسادة فانفجر بالسعال . ومن حسن الحظ ان الكلب الذي اغاظـــه هذا التصرف المفاجيء انفجر بدوره . وعندها اخذ نساء المطبخ يصرخن وينادين الاطفال باصوات تصم الآذان .

انتهى الاحتفال ، وذهب المدعوون . وأبعد عنا الكلب ، وعاد كل شيء من حولنا هادئاً . كان شهر مارس (اذار) يشارف نهايته . وكان الربيع قد وضع ، بالبليدة ، ازهاراً وعطوراً في كل مكان. وكنانستنشق انسام المساء وننتشي بها ، وكانت الالوان هي التي تسحرنا بالاخص بعد جدران السجن العمياء وساحاته التي لا شمس فيها وعالمه الرمادي الباهت .

غيروا لنا المخبأ اكثر من مرة ثم سُفرنا الى الجزائر العـــاصمة ، حيث اصبحت الضيف السري عند عائلة وطنية . كم احب ان يكون في الجزائر عائلات كبيرة من نوعيتها . لقد كانوا كلهم ، كبيراً وصغيراً ، حتى الفتيات، يناضلون . ولما عاد السلام ، واصلت العائلة العمل ، من غـــير ان تستشير مصالحها الخاصة في اية لحظة . وكثيراً ما يتفق ان ازور افراد العائـلة الآن وان اشرب قهوة عائلية معهم ، مستعيداً ذكريات الشهور الستة التي قضيتهـا بينهم بعد فراري . وكانت احدى فتيات العائلة تدعي حسيبة ، وهي كائن جدير بكل اعجاب ، فهي لا تعرف الا الاخلاص ، وهي تهتم اليوم باطفالنا ماسحي الاحذية وبابناء الشهداء [١] .

---

(١) ابناء المجاهدين الذين استشهدوا في الحرب يربون في مؤسسات تقـوم بشؤونها الدولة . وماسحو الاحذية الصغار اخذوا من الشوارع في فبراير ١٩٦٣ - روبير ميرل -

في الجزائر العاصمة حصل لي الاخوان في المنظمة الخاصة على اوراق مزيفة، وبفضل مشاركة مستخدمي الباخرة ، ركبت كمسافري الباخرة : « مدينة وهران » منطلقاً نحو مرسيليا . ومنها ذهبت الى باريس حيث قضيت بضعة شهور مختبئاً في مسكن صغير مطل بنهج كادي بمون مارتر.. وبالتأكيد كنت في باريس اكثر امناً مني في الجزائر العاصمة . ولكني امتثالاً للانضباط كنت لا اخرج الا لماماً . فقط من اجل الاتصالات الضرورية . وكانت حياتي هادئة ومنطوية .

وفي سنة ١٩٥٣ التحقت بمصر (التي كان الملك فاروق قد طرد منها قبل قليل) وكانت بداية الثورة تبدو شديدة الصعوبة . كذلك بدايتنا ، في القاهرة ، لم تكن اقل صعوبة . كنت انا واصدقائي آنذاك مجهولين تماماً في مصر . وكنا نعيش في ظروف جد حرجة : ان الفول في مصر مثل الارز في الصين ، وخلال اربعة شهور كان الفول هو الوجبة الوحيدةالتي نتناولها يومياً. ووجبة الفول الجاهزة كانت تكلف ، على ما اذكر ، قرشاً صاغاً . ووسائلنا لم تكن تسمح لنا بان نقدم لانفسنا شيئاً اضافياً . ومع الثوريين المصريين كانت لنا في البداية بعض المصاعب ، منشؤها تبايننا اللغوي . وما زلت اذكر انه عندما كنت للمرة الاولى اعرض الوضعية في الجزائر على الجامعة العربية ، كان لزاماً علي ان اتحدث بالفرنسية..ان الفرنسية لغة رائعةبالتأكيد ولكن استخدامها في مثل هذا المكان له مفعول الكارثة. اية فضيحة كانت ! واي اجتراء على المقدسات ! بينما كنت اتحدث امام اخوتي العرب ، كنت ارى وجوههم تتشنج تحت تأثير الاندهاش . لقد كنت اتفهم مشاعرهم : العربية هي وسيلة وراية اخوتنا في وقت معاً . ولكن هل كانت لي حيلة اخرى في الامر ؟ كنت جزائرياً من جماهير الشعب ، التي غاصت في الليل

منذ قرون وقرون ، فنسيت لغة اجدادها النبيلة .

وكانت هناك اختلافات اخرى بيننا وبين المصريين . لقد كانت فكرتهم خلق وتمويل حركة كبرى مركبة من ثلاثة فروع وطنية لتحرير شمال افريقيا. هذه الفكرة لم تبـد لي واقعية . ان وحدة المغرب كانت ابعد ما تكون عن التحقيق . فكيف نستطيع ان نتصرف كما لو كانت قد تمت ؟ ولماذا تطرح ، من البداية ، المشاكل الدقيقة لقيادة تعلو على الاوطان Supranationale بينما كان النضال في سبيل الاستقلال ، في كل من بلدان المغرب الثلاثـــة ، نضالاً وطنياً بلا جدال ؟ ورفضنا ، شارحين للاصدقاء المصريين ، اسباب رفضنا . وقد اشمأزوا من اول الامر ولكن فيما بعد اثنوا على وضوح موقفنا ، ونزاهته كذلك . ورفضنا قبول تمويلهم اذ اننا كنا غـير متفقين مع مفاهيمهم . وفي النهاية ، هم الذين غيروا مواقفهم ووعدونا بكل مساعدة ممكنة عندما نعلن الثورة .

ولم نكن نطلب اكثر من ذلك ! لقد كنا ننتظر على احر من الجمر! ولكن مصالي كان غارقاً الى الذقن في مستنقعات الجمود . لقد كان في الوضع السائد مناقضة لا تطاق : كانت الوضعية في تونس ثورية . وكذلك كانت في المغرب. واما الجزائر فقد كانت بلا حراك . ان جناحي المغرب كانا ينتفضان ، امـا جسد الطائر الكبير فقد ظل هامداً .

خلال شهور كان الاتجاه المتصلب في الحزب – المناضلون السابقون في المنظمة الخاصة ، الذين اعادوا تنظيمهم بصورة سرية، على صلة بالخارج وبي – يبذل كل ما في وسعه ليدفع الاتجاه الرخو الى العمل . وفشلت كل مساعيه . لان المصاليين الذين اداروا ظهورهم للتاريخ لم يعودوا يحلمون الا بالانتخابات .

في خريف ١٩٥٤ اجتمع قادة المنظمة الخاصة في سويسرا وقرروا، خارج اطار الحزب وبدون علمه ، الشروع في العمل . لم نحدد يوماً لشن العمليات ، لاننا كنا لا نريد ان نربط رؤساء الداخل بتاريخ محـــدد . وهم الذين ، على ضوء الوضع الداخلي ، اختاروا غرة نوفمبر .

في الواقع بدأت الثورة الجزائرية المسلحة بقليل جـداً من السلاح : ٣٥٠ او ٤٠٠ قطعة فقط من البنادق الايطالية Mousquetons وصلت من ليبيا . ولقد وجــدت المنظمة الخاصة عنتاً شديداً في ادخالهـا الى الجزائر بطرق ملتوية : من طرابلس الى غدامس ومن غدامس الى بسكرا . ولقد نام هـذا السلاح اكثر من عـام على هذه الارض الجزائرية الـتي كنا نريد ، بعونه ، استعادتها . كان يُستخرج من الارض في آماد منتظمة ليُنظف ويدهن ثم يلف من جديد في الخرق ويدفن في مكان جديد . ولم يكشف اي من مخابئنا قط ولم تقع اية خيانة .

وعندما آن الاوان ُوزّع هذا السلاح في كل مكان تقريباً من البلاد وبالاخص في الاوراس ، الذي كنا نريد ان نجعل منه الحصن الاساسي للثورة . بيد ان اي قطعة سلاح لم ترسل الى عمالة وهران . لان اصدقاءنا المغاربة وعدونا بان يزودونا به. وضرب الموعد في مكان ما من الريف، وفي الوقت والمكان المعينين حضر رجالنا ببغالهم . وانتظروا اياماً طويلة ولكن احداً لم يحضر . وعادت قافلتنا بخفي حنين عشية غرة نوفمبر . واستولى على المسؤول المحـــلي الكبير اليأس . ولم تعد لديه الوسائل ليخبر رؤساء الداخل بخيبته المريرة ، لانه كان يخشى ان يظهر في عينهم بمظهر الجبان . ولذا شرع في الهجوم يوم غرة نوفمبر بالوسائل التافهة التي كانت لديه وترك حياته في ذلك الهجوم .

كنا نعلق على غرة نوفمبر نتيجتين ، إحداهما عظيمة الأهمية وبعيدة المدى: هي جعل الشعب الجزائري برمته يلتف حول عمل شنّته أقليـــة نشيطة . والنتيجة الثانية كانت تعود لخطأ متوقع من الخصم : ولقد ارتكبها كما كنا نأمل ، وحصلنا منها على ربح عظيم . لم نكن ، في الواقع ، نجهـل انه في حالة « ضربة قاصمة » لن تتأخر الحكومة الفرنسية عن حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية وسجن مسؤوليها . وذلك ، بكل ارتياحنا ، ما فعلته. وهكذا خلصتنا من « ساسة دساسين » Politicards كانت تحسبهم شركاءنا ، وكانوا في الحقيقة يضايقون ، على نحو رهيب، عملنا بالبلبلة التي كانوا يشيعونها في أفكار الجماهير . وهكذا بفضل الخصم أصبحت جبهة التحرير الوطني التي أسستها المنظمة الخاصة في غرة نوفمبر هي القوة السياسية الوحيدة للجزائر .

وعندما استُبدل سوستيل [1] بليونار أدرك هذا الأخير مدى الهفوة التي ارتكبها أسلافه. فأفرج فوراً عن بعض المسؤولين ، وأبقى على حزب «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » L U. D. M. A. الذي يقوده فرحات عباس، وأجرى اتصالات مع رؤسائه . وفكرة سوستيل كانت أن يشجع ، بطرق غير مباشرة ، حركة قومية معتدلة تحبّذ مثلنا نفس الأهداف، ولكن بطريق قانونية انتخابية ... لقد كان المشروع ذكيـاً ، ولكنه فشل لسببين : أولاً لأن قادة « القومية المعتدلة » الانتهازيين بطبعهـــم ، لم يتخلفوا ، من أجل تغطية أنفسهم ، عن الأتصال بنا ، ولم نتخلف من جهتنا عن إفهامهم بصرامة بأن ألاعيبهم السياسية لن نتسامح معها إلا في الحدود التي يمكن أن تخدمنا. وثانياً لأن اعلان الثورة في الشمال القسنطيني ، يوم ذكرى خلع محمد الخامس ،

---

(١) الحاكم الفرنسي العام للجزائر — المترجم —

في ٢٠ آب ١٩٥٥، بعد عام من اندلاع غرة نوفمبر، برهن للرأي العام الجزائري بأن جبهة التحرير الوطني أبعد ما تكون عن التلاشي، بل انهـا نجحت في توسيع وتكثيف عملها. وفوراً استخلص « القوميون المعتدلون » الأعزاء على سوستيل، كل النتائج المرغوبة [1].

وبينما كانت الثـورة تنمو، كنت مع أصدقائي في الخارج أنظم دعم العمليات بالسلاح Le Soutien Logistique. وبنـادق غرة نوفمبر لم تكن تستطيع أن تدعم طويلاً حرب عصابات. كانت مهمتي الحصول على أسلحة أكثر جدية من الأقطار العربية وادخالها للجزائر.

واذا كانت مصر قد أمدّتنا، منذ البدايـة، بمساعدة عظيمة، فان كل الأقطار العربية بدرجات أقل، قد ساعدتنا. وأقول لك الأقطار العربية بما في ذلك الأقل تقدمية مثل الأردن والعربيـة السعودية. ان الملكة دينـا الجذابة أعارتنا يختها لنقل السلاح الى الساحل المغربي. وفي البداية، كانت هذه الاعارة، اذا تجرأت على القول، بغير اختيارها، ولكن عندما أوقف الاسبـان عمال اليخت واحتجزوه إثر عمليات قاموا بهـا، اضطررنا للاعتراف للملكة بأننا قد استعملنا يختها الجميل. وفوراً عفت عنا. وشرعت في العمل عن طيبة خاطر، وطلبت من الاسبان تحرير السفينة والحمولة، مؤكدة لهم انه بأمر منها، وعلى هواها، كان يختها يتجول بدونها على مسافـة ٣٠٠٠ كلم من مرفأ الإرساء.

كان اليخت يدعى بنفس اسم الملكة. وكانت سفينة عجيبة. وقـد اصطدم في قلب الليل بكثيب من الرمـال، في خليج صغير، بالساحل

---

(١) يشير بن بلة هنا الى البيان المسمى ببيان الـ « ٦١ » منتخباً جزائرياً الذين جمعهم بعد ٢٠ أغسطس – أو ت –، في قصر كارنو، بن جلول واعلنوا رفض الادماج. وهكذا فقد مشروع سوستيل كل قاعدة سياسية جزائرية. – روبير ميرل.

المغربي . كان ذلك في فبراير ١٩٥٥ . كان المساء بارداً ، وكان البحر طامياً، وقد مُدّ حبل من السفينة الى الشاطىء ، وتعرى رجالنا ، وطوال الليل ، ظلوا ينقلون صناديق السلاح الثقيلة من اليخت « دينا » الى الأرض اليابسة ، غارقين الى الصدور في الأمواج المثلجة . كانوا مناضلين من مغنية وتلمسان اجتازوا الحدود ، قبل خمسة عشر يوماً ، وظلوا ينامون على الأرض مشتتين عند سكان الريف الساحلي . كانوا يرتجفون من البرد ، وكان الصندوق مثبتاً ، بتوازن على الرقبة ، بيد ، واليد الأخرى ممسكة بالحبل . وكان كل واحد منهم يقطع في كل مرة ٢٠٠ متر في هيجان بحري عنيف . لم يكن هناك قمر . واذا تركوا الحبل ، فلن يبقى لهم ، للاهتداء ، إلا الضوء القليل المتقطع المنبعث من قنديل كهربائي .

أصيب بعض المناضلين بجروح ، وفقد آخرون سلامة بعض أعضائهم، وقد أصيب بعضهم فيما بعد بذات الرئة ، ولكن ما أن طلع الفجر حتى كان اليخت قد أفرغت شحناته ، والاسلحة قد دفنت في الارض ، وفي صباح اليوم التالي أمرّ الفلاحون الريفيون قطعان الغنم على رمال الشاطىء لمحو الآثار . ولكن الأمور ساءت عندما شُرع في تحريك اليخت . لأن البوليس الاسباني تدخل في الموضوع ، فاكتشف غواصون في القعر أمام مقدمة السفينة حربتي بندقية من طراز موزير Mauser . وكما سبق ان قلت فان عمال السفينة اوقفوا. ولكنهم انطووا على السر كما تنطوي المحارة. واستمر البحث من الطرف الاسباني بغير اكتراث كبير . واذا كان التدخل الحازم من طرف الملكة دينا لم يقنع رجال البوليس كل الاقناع ، فقد مكنهم على الاقل من ذريعة كانوا يبحثون عنها لحفظ القضية .

بعد عملية اليخت دينا تمت عمليتان اكثر اهمية بكثير ، كانت أخراهما قد

نفذتها سفينة حربية مصرية . ولم يعد الامر يتعلق ببنادق – موسكوتون – ولكن بالبنادق الرشاشة ، والرشاشات ، ومدافع الهاون والبازوكا، وقذائف اليد الدفاعية ، وكمية كبرى من الذخيرة الحربية : اسلحة من صنع المـــاني وانجليزي ، كانت في معظمها جديدة ، عصرية ومتقنة .

وبفضل هذا التسليح استطاعت الثورة الجزائرية ان تتقـدم الى العمل ، يوم ٢ اكتوبر ١٩٥٥ في جهة وهران ، الجهة الوحيدة التي بقيت حتى هـذا التاريخ توصف بانها « هادئة تماماً » في تقارير العدو . وبعد قليل ثارت جبال الونشريس بدورها . ومضى الزمن الذي كان فيه الخصم يأمـــل قهر الثورة بعزل الاوراس . وغدت الآن جبهة التحرير الوطـــني تخوض المعارك في كل انحاء الجزائر الثائرة .

وفي طول الشمال الافريقي كانت الجماهير العربية قد حملت السلاح ، لان ثورة جهة وهران كانت قد نُظمت بالاتصال مع الثوار المغاربـــة الذين كانوا يشنون العمليات في الريف . بـــل انهم ارسلوا بكتائب في اتجاه تعزه [1] والاطلس . اذا كانت ثورة الشمال القسنطيني قـــد احبطت مناورة سوستيل فان الانطلاق المثير يوم ٢ اكتوبر من نفس العام لجهة وهران والريف قداحبط مناورة جراندفال Grandval بالمغرب . واضطر الخصم ، خشية من خسران كل شيء ، الى الاستسلام . فاسرع لاعـادة محمد الخامس الى عرشه ومنـــح المغرب الاستقلال في نطاق التكافل L'interdépendance.

لقد ولّد استقلال المغرب واستقلال تونس ايضاً تأثيراً عميقاً على الجزائر. فمن الناحية السياسية بات من المستحيـل حرمان الجزائر ممـــا حصلت عليه

(١) منطقة تقع بالمغرب شرقي فاش على الحدود الجزائرية ـ المترجم ـ

جارتاها . ولكن ايقاف اطلاق النار في المغرب – من جهة اخرى – طرح علينا مشكلاً خطيراً : ان الجيش الفرنسي من الآن فصاعداً مطلق اليدين ليركز علينا عمله . وقد كانت استراتيجيتنا ترتكز على تشتيت قواه في كل انحاء المغرب . وعندما حل السلام بتونس والمغرب ، اصبحنا وحدنا ، من الآن ، الذين نقاوم هجمات اسلحته .

اننا لا نستطيع ان ننفي ان بعض المسؤولين الجزائريين ، في ذلك العهد، شعروا بالمرارة . لقد انتشلنا من النار فستق الاستقلال ، واخواننا كانوا على الحدود يتأهبون لأكله ولكني فكرت بان الغضب لم يكن يجدي . بل بالعكس كان ينبغي ان نحصل على الوضع الجديد على اقصى ما نستطيع من المزايا للجبهة . وذهبت لمقابلة محمد الخامس في مدريد . ووجدته رجلاً بسيطاً ذكياً في منتهى النزاهة ، ومهتماً كثيراً بعواقب ايقاف اطلاق النار المغربي علينا . قد أبالغ بعض الشيء اذا قلت إني شعرت لديه بنوع من تأنيب الضمير في حقنا : هذا الاحساس يشرفه كثيراً لانه ، فيما يخصه ، لم يكن له شيء يأخذه على نفسه . وانتهت محادثتنا بنتائج هامة . لقد وعدنا محمد الخامس ، في غيبة المساعدة العسكرية المباشرة ، بمساعدة كبرى . لقد اعطانا ، فيما اعطانا ، تأكيداً صريحاً بان تكون الحدود المغربية في كل لحظة بالنسبة لنا حدوداً صديقة ، وممكنة العبور ، دخولاً وخروجاً ، للاسلحة والرجال .

بيد انني واصلت ارسال السفن المحملة بالسلاح الى الساحل الريفي، بحظوظ في النجاح مختلفة ، ولكن أياً منها لم يكن بالنسبة لنا نكبة كما كانت سفينة لاتوس L'Athos ، التي اختطفتها ، كما هو معروف ، البحرية الفرنسية . لقد كنت اقدر ان هذا النشاط السري القوي الذي يترتب من هذه العمليات لن يمر علي بدون مفاجآت واخطار .

غير ان العجيب ان المتاعب لم تأتني من المخابرات الفرنسية بل من رجال المخابرات الاميركية . لانهم ، فيما اعتقد ، وجدونا جذريين اكثر من اللازم . لذلك انشأوا في ليبيا ، بالاعتماد على بعض العناصر المعتدلة في جمعية العلماء[1]

---

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حركة اسسها المصلح الجزائري العظيم الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي يعتبر موضوعياً وتاريخياً من اكثر زعماء القومية العربية في الجزائر ، بعد الامير عبد القادر ، عداء للاستعمار وفذاذة في الرأي ، وانفتاحاً على روح العصر . كان هدفه الاول من انشاء الجمعية محاربة طبقة الكهنوت والشيوخ ، المرتبطة فكراً ومصلحة ، بالطبقة الاستعمارية الغازية ، والتي كانت تروج من المنابر سموم الايديولوجية الاستعمارية ، جاعلة من الاسلام تبريراً وقحاً لـ « ضرورة» الحضور الاستعماري ، ونشر الذهانات Psychoses المرصودة لتنويم الوعي الشعبي ، وامتصاص تمرده وأستيائه من نظام الاحتلال المهين ، واغراق الروح الكفاحية للشعب في مخاوف رعب خرافي .. لفصلها اكثر فاكثر عن قضايا عصر الثورة العالمية المعادية للاستعمار والاستغلال .

لم يكن ، اذن ، غريباً في منطق اوضاع ذلك العهد ان يغدو بن باديس هدفاً لكل السهام الرجعية : اتهموه بالالحاد والشيوعية . واعلنت مجامعهم نبذه . وكان ائمة المساجد ، الذين تموِّلهم السلطات الاستعمارية ، يلعنونه من المنابر في صلوات الجمع . وكانت ذريعتهم في هــذه الحملات الحاقدة بعض الاقوال المأثورة عليه مثل : « اللهم اجعلنا في الدنيا من اهل اليسار وفي الآخرة من اهل اليمين » و « الشيوعية خميرة الارض » ... وهي كلمات قالها او كتبها ، بشجاعته المعهودة، فيمواقف حاسمةخذله فيها اكثرانصاره وانجده فيها دعم اليسار الحازم . الا ان السبب الجوهري لتألب الرجعية الدينية العميلة عليه لم يكن مجرد اقواله بقدر ما كانت اعماله التقدمية والوطنية: بينا كان رجال الدين مجمعين على ان اختلاط الفتى بالفتاة رجس من عمل الشيطـــان ، انشأ ابن باديس سنة ١٩٣٤ اول مدرسة مختلطة في الجزائر للبنين والبنات . وبينا كان بعض قـــادة البورجوازية « الوطنية » في الجزائر يطالبون بالادمـــاج ، اي باعطاء الجنسية الفرنسية لكل الجزائريين ، كان ابن باديس يرد عليهم في مجلة « الشهاب » نثراً ونظماً : وما زال نشيده الذي رد به على فرحات عباس الى اليوم على كل لسان :

شعب الجزائر مسلم	والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجاً لـــه	رام المحال من الطلب ←

وفي حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، شبكة تحت قيادة اميركي مسلم تعمل بازاء شبكتنا .

كان للمخابرات المركزية الاميركية ، هي الاخرى ، بكل وضوح ، هدفان : تسليح القوميين الجزائريين ضد فرنسا (التي كانت حليفتهم في الحلف الاطلسي) وذلك لتقطف منهم غداة الاستقلال ثمار مساعدتها ، ومن جهة اخرى دعم المعسكر الجزائري المحافظ على حساب الجزائريين المتهمين بالاشتراكية .

لا هذا ولا ذاك من الهدفين قد نجح . واذا كانت الشبكة الاميركية تشتري ، في الواقع ، السلاح – بكميات غير كافية طبعاً – وقد نجحت مرة أو مرتين في ادخاله للجزائر – فانها كانت تسلمه لأناس ليست لهم اية رغبة في القتال ، وانما كانوا فور تسلمه يدفنونه الى الابد . الا ان هذه الشبكة ، بالنسبة لنا ، كانت بالعكس تضايقنا بشكل وبيل . ذلك ان عناصر هذه الشبكة كانوا صاخبين وثرثارين ومتعفنين ، ومثقلين بالدولار ، ويعيشون ، بالاضافة الى ذلك ، حياة مسرفة ، وبذلك تمكنت المخابرات الفرنسية من

← ولكن بعد وفاته تحولت، مع السنين ، الجمعية الى حزب سياسي لبقايا الاقطاعية والبورجوازية الزراعية المنغلقة ، التي قادت على عهد السلطة الثورية ، ١٩٦٢ – ١٩٦٥ ، حملات التكفير ضد دعاة الاصلاح الزراعي ، واختلاط المرأة بالرجل في العمل والدراسة، وتحرر المرأة الجزائرية من طغيان الأب والزوج ورق القرون ، وانتهاج سياسة حازمة ضد الامبريالية الاميركية وتدخلاتها السافرة في كوبا والكونغو وفيتنام وسان دومنجو . ومعروف ان جمعية العلماء وقفت من الثورة المسلحة ، بالاخص ، في البداية موقفاً معادياً مرة وانتهازياً مرة أخرى . وكان كثير من اعضائها يصفون الثوار بنفس النعوت التي كانت تصفهم بها سلطات الاحتلال ، باستثناء قليل من مناضليها مثل الشيخ العربي التبسي ورضا حوحو ، الذين وقفوا مواقف شريفة من الثورة . – المترجم –

رصدهم بسرعة ، وبحماقتهم تمكنت هذه المخابرات من اكتشاف شبكتين من شبكاتنا بروما وليبيا .

هؤلاء الهواة كانوا يحرقوننا . فقررت ان ادخل في العمل ضدهم . وقد التقيت في روما بالاميركي المسلم الذي كان يقود الشبكة . وخلال مشهد عنيف ، هددته بتصفية شبكته اذا لم تتوقف عن العمل ولكي ابرهن له اني لا امزح حبست الرجال الذين كانوا يأتمرون بأمره في المغرب . ولم اطلق سراحهم إلا بوعده الصريح بالكف عن الظهور .

بينما كنت أطارد الشبكة الاميركية ، كنت أنا نفسي مطارداً من مصالح المخابرات الفرنسية، التي ظهرت لي للمرة الاولى في القاهرةفي أوائل سنة ٥٦ . كنت في مكتبي الصغير بصدد مكالمة تليفونية ، عندما دخل علي الشاويش وبيده طرد . ورفعت رأسي :

– ما هذا ؟

– انه طرد باسمك حمله اليك تاكسي من سميراميس .

كان اسمي ، طبعاً ، اسماً مستعاراً يعرفني به قليل جداً من الناس في القاهرة .

– هل السائق هنا ؟

– ايوه . انه بالاسفل ينتظر البقشيش .

– اعطه اياه وسلمه الطرد ، وقل له ان يعيده للمرسل . افعل بسرعة .

ولكن القنبلة كانت زمنية بكل دقة واحكام . فلم يكد التاكسي يقطع مئة متر حتى انفجرت بدوي مرعب . وعندما وصل رجال الشرطة الى مكان الحادث وجدوا الصندوق الخلفي للسيارة معلقاً بشرفة فيالطابقالسادس.

أمـا السائق البائس - ضحية بريئة لحرب لا يعلم منها شيئاً – فلم يعثروا من جسمه إلا على بعض الحطام .

وبعد هذه الحادثة قال لي صديقي محساس الذي كان مسؤولاً عن الامن :

– يجب عليك كلياً ان تحافظ جيداً على نفسك . انك متغافل عن نفسك كثيراً . ليس عندك حتى قطعة سلاح .

وبعد هذه الكلمات ادخل في جيبي مسدساً . ورفعت كتفي : مسدس ضد قنبلة !! ولكني احتفظت بالسلاح . وتركت مصر الى ليبيا ، بدون أن اشك في ان فخاً آخر ينتظرني في طرابلس .

ان ليبيا هي أحب قطر عربي الي ، باستثنـاء الجزائر طبعاً . وقليلة هي الشعوب التي كانت تبدو لي جذابة مثل الليبيين . انهم بسطاء ، اذكيـاء ، ودودون . وأستطيع ان اقول ان حـلاوة الطقس انسابت الى ارواحهم . انني اظل مشدوهاً عندما أفكر فيهم ، وفي لطفهم الذي لا ينضب له معين ، وفي قدرتهم الرائعـة على الصداقة ، وفي طهارتهم ايضاً ، لأنهم عاشوا بعيداً عن قلاقـل العواصم الكبرى فان الفساد لم يجد اليهـم سبيلا . وحتى البورجوازيون الرجعيون في ليبيا يملكون طريقة ما في التصرف تجعلهم ، من بعض الجوانب ، لطفاء .

عندما عدت الى ليبيا بعد الاستقلال ، خصني الليبيون باستقبال لن أنساه ما دمت حياً . لقد غمروني بلطفهم وكرمهم فلم أعرف كيف ابرهن لهم عن صداقتي وحبي ، وقد قلدوني لقب دكتور شرف من جامعة بنغازي . وقد كنت نصف متأثر ونصف ضاحك وأنا اذكرهم ، بينما كنت اعانقهم ، بان كل ما عندي من الشهادات الفرنسية هي الشهادة الابتدائية – متاع خفيف للقب

جد ثقيل – ولكنهم لم يريدوا أن يصغوا الي . وأصبحت دكتوراً شرفياً – بفضل شعب من اكثر شعوب العالم لطفاً وحباً .

كنت في طرابلس ، سنة ١٩٥٦ ، عندما تترك لي مواعيدي قليلاً من الوقت ، اذهب للنزهة في الحديقة الكبرى بالمدينة . وفي هذه الحديقة اعطيت موعداً ، قبل ١ نوفمبر ١٩٥٤ بأيام قليلة لمصطفى بن بو العيد الذي اصبح فيما بعد القائد الكبير لثورة الاوراس . ولما كان بلا اوراق هوية فقد كان عليه ان يمر على الجنوب التونسي ، ويمشي في الصحراء ، ميتاً من العطش ، طوال أيام . ثم وصل مستنزفاً ورجلاه داميتان . وفوراً اعتقلته السلطات الليبية . وعلمت بذلك وبعد زمن قليل نجحت في اطلاق سراحه . وقضينا معاً عشرة أيام لضبط خططنا . كنا نحن الاثنين جد فقيرين الى حد انه لم يكن لنا صالون للأكل غير حديقة طرابلس الكبيرة . وكل ما عندنا من طعام كان قليلاً من الخبز والعنب . ولكن قلبينا كانا عامرين بالايمان بميلاد عالم افضل .

عاد بن بولعيد لمقابلتي في أوائل ١٩٥٥ ، ولكن هذه المرة اوقفه رجال الدرك التونسيون . وخلال المعركة للتخلص قتل واحداً منهم . وفر . ولكنهم أدركوه . وسلموه للسلطات الفرنسية التي حكمت عليه بالاعدام . ونجح ، لست أدري بأي معجزة ، في الفرار يوم ٤ نوفمبر من نفس العام ، والتحق بثواره في الاوراس . ولم تكد تمضي بضعة شهور كان خلالها مهتماً باعادة تنظيم فرقه ، حتى جاءه الفلاحون يحملون اليه جهاز ارسال كانت احدى الطائرات الفرنسية قد اسقطته « خطأ » بعيداً من مركز عسكري . وكان جهاز الارسال محشوا بالبلاستيك المتفجر فمزق بن بولعيد . كنت أتنزه حزيناً في الحديقة حيث تغدينا بزهد قبل عامين . كنت أتذكر صفاء بن بولعيد وقوته الروحية، وصبره امام المحنة ، ولم اكن اشك مطلقاً وأنا استعيد

ذكرى المجاهد الكبير الذي اختفى ، ان الموت كان معي على موعد في نفس اللحظة ، بطرابلس .

كان لليد الحمراء اسم وكان لها وجه . انها تدعى جان دافيد . لماذا جعل هذا الرجل ، الذي كان كولونا [1] فرنسياً يعيش في تونس ، نفسه في خدمة اليد الحمراء الفرنسية ؟ ولماذا قبل مهمة قتلي . ان الذين استعملوه يستطيعون وحدهم اليوم أن يقولوا ذلك لنا . سواء كانت اليد الحمراء ام لم تكن فرعاً من الاستخبارات الفرنسية ، فقد جعلت الناس في ذلك العهد يتحدثون عنها كثيراً. ونجحت في القيام ببعض المحاولات ضد مناضلينا بالمانيا.

على كل حال كان جان دافيد قتالاً كفؤا . لقد كشف عن ذلك البحث . وقد نظم محاولة اغتيالي بعناية كبيرة خلال سته شهور لأنه نظراً لعلاقاتي مع الحكومة الليبية ، فقد كان يظن اني محروس وهو ما لم اكنه .هذه العلاقات كانت موجودة ، والمساعدة كانت حقيقية ، ولكنها كانت تعطى لنا في سرية مطلقة ، لأن ليبيا كانت ما زالت تحت النفوذ الاجنبي . ورئيس الشرطة كان انجليزياً .. كان علي اذن ان أعمل في شروط السرية التامة . وان أمر متواريا عن انظار الجميع،بما في ذلك البوليس ومصالح الامن الليبية.

ظل جان دافيد يحضّر خطته مدة ستة شهور، مقدماً نفسه على انه نائب دار تجارية . وكان لا يفتأ يتردد بين تونس وليبيا . وقد عود الجمارك الليبية والبوليس الليبي على رؤيته يمر بالليل والنهار في سيارته ، دائماً متأدباً ودائماً بشوشاً ... وأخذ الليبيون بلطافة هذا الاوروبي ، وبالتعود ، اذا جاز القول ، على مروره المتعاقب بدأوا يعفونه شيئاً فشيئاً من الاجراءات الطويلة

---

(١) الكولون هو اسم يطلق على الفرنسي الذي يمتلك الارض بالمستعمرات . واسمه مشتق من لفظ الاستعمار . – المترجم –

التي يفرضها على الاجنبي الراكب للسيارة عبور الحدود . وهذا التعود كان ، بالنسبة لجان دافيد ، ذا اهمية ، لأنه بعد ان يضرب ضربته كان عليه ان يفكر في امنه ، وفي العودة الى تونس بأسرع ما يكون .

هناك عواصم لا يستغرب المرء ان تصبح اوكارا مغلقة للعملاء السريين . ولكن طرابلس لم تكن في عداد هذه العواصم . فلا شيء اكثر هدوءاً من هذه المدينة المحبوبة . انها تستطيع دائماً أن تستغني عن البوليس لأن الناس مسالمون . كنت اسكن في فندق جد صغير ولكنه نظيف يدعى : اكسيلسيور Excelsior وكان صاحب الفندق ينام مبكراً . ولم يكن الفندق محروساً بالليل إلا من حارس لا يحرس إلا قليلاً . كلما كنت أعود لأنام في ساعة متأخرة ، لأني كنت احدد مواعيدي مع الليل ، كنت أجده دائماً غافياً خلف المنضددة .

في ذلك اليوم عندما عدت الى الفندق – اكسيلسيور – حوالي الساعة الواحدة صباحاً رأيت سيارة واقفة امام الفندق . وعرفت منها انها كانت سيارة اوربي قاطعتني بالطريق في نفس الامسية عندما كنت خارجاً من الفندق . ولاحظت خفية ان الكرسي الخلفي كان مملوءاً بالحقائب ، كما لو أن صاحب السيارة كان يستعد للسفر .

كان الحارس، بطبيعة الحال، نائماً . فأخذت مفتاحي من غير ان اوقظه. وصعدت للطابق الاول . وفتحت بابي وأمررت يدي من انفتاحة الباب القليلة لإنارة الغرفة . وأدرت الزر ولكن شيئاً لم ينره . فكرت : « القنديل محروق » وتقدمت خطوة للدخول الى الغرفة . وفي هذه اللحظة بالذات ، شعرت في اعماقي باشارة الخطر الخفيةالتي تنذرنا غالباً بعد ربع الثانيةالاخير،

بان خطراً يهددنا . وتوقفت : ربما كان مهاجمي قد احس بترددي ، لأنه لم يكن ينتظر انأعود فاغلق الباب.ثم ضرب .ولكنهضرب قبلالاوان . لا على الرقبة كما كان ينبغي ان يفعـــل . ولكن على جانب الرأس . كانت ضربة رهيبة . ولكني لم أسقط ولم افقـــد وعيي . وشددت جمع يدي في اتجاهه فضربته وضربني هو الآخر . احسست باني أوشك ان اتلاشى . وفكرت في مسدس محساس فتراجعت وانبطحت على الارض ثم أطلقت النـــار . اطلقت شحنة بكاملها في اتجاهه دون ان اصيبه ، واعتقد انه اطلق النار ايضاً لأن زجاج النافذة التي كانت خلفي قد تطاير شظايا . وكانت الطلقات تدمدم بقوة تصم الآذان.ورأيت هيكله ينسل في الظلام من زاوية الباب المضاءة وادركت انه يلوذ بالفرار .

وقفت مترنحاً ، وأحسست بسائل حار يسيل على وجهي ، ودون ان افكر بانه لم يعد عندي ولا طلقة واحدة لمسدسي لحقت بخصمي . وأدركت الدرج ، وما ان وضعت رجـــلي علىالدرجة الاولى حتى سقطت مغشياً علي ورحت اتدحرج الى اسفل .

وأشعرت الجهات المختصة بالتليفون . فأقيم سد في الطريق . ولكن جان دافيد هجم على السد فابتعد رجال الدرك ومر . ولكنه ارتكب خطأ : انه احسن الظن كثيراً باللطافة الليبية . فعلى بعد بضعة كيلومترات من الحدود ، اقيم دونه سد آخر . وأراد ان يجتازه بالقوة مثل السابق . ولكن الرصاص انهال عليه فسقط قتيلاً .

* * *

ضمدت جراحي . وعولجت ، وشفيت بسرعة . لقد منحني القدر وقف

التنفيذ ، ثم انذرت بالخطر في رومـــا . ولكن لم يحصل شيء خطير . لقد كنت احمي نفسي بحركتي الدائبة . لا أبقى ابداً طويلاً في مدينة واحدة ، وجل الوقت كنت ، لضرورة ارسال السلاح ، انتقل من مكان الى مكان . حتى اني استطيع القول اني امضيت حياتي في الطائرة بلا ادنى مبالغة. كنت في الاجواء بلا انقطاع ، في مكان ما بين القاهرة وطرابلس ، ورومـــا ، ومدريد ، وتطوان .

وما زلت اذكر ، باني كنت عندمـــا اجلس على مقعد الطائرة وأشد حزامي ، افكر باني ، هنا على الأقل ، سأتمتع باستراحة : وسأكون – لبضع ساعات – في أمان تام .

كنت مخطئاً . والمستقبل لم يتوان عن افهامي ذلك .

الفصل الخامس

الأسْـر

قبل ان اتحدث عن اعتقالي،اريد ان اعود قليلاً واستعيد النتائج السياسية الخطيرة التي نتجت عن مؤتمر الصومام [1] .

(١) مؤتمر الصومام انعقد في ٢٠ آب ١٩٥٦ ، وكان منظمه هـو القبائلي كريم بلقاسم ، وقد نقح التنظيمات القيادية للثورة الجزائرية لاعطاء الثقل للداخل على حساب الخارج ، والحدّ من نفوذ بن بلّه ، و « القادة التاريخيين » لغرة نوفمبر ، وافساح المجال امـام القوميين المعتدلين امثال فرحات عباس الذي كان قد انضم مؤخراً لجبهة التحرير الوطني. روبير ميرل

تعقيب من المترجم

منذ الاسابيع الاولى للانقلاب اصبح يوم ٢٠ آب-اوت- ١٩٥٦ يحاط براسيم احتفال غير معهودة، هي بشكل ما تعبير عن حنين القوى البيروقراطية الرجعية لبعض النوعيات السياسية التي كانت وراء تنظيم المؤتمر الذي عقد ، بأوزلاغ غير بعيد من اقبو بوادي الصمام في ١٩٥٦/٨/٢٠ ، في غيبة « الوفد الخارجي » الذي كان يضم العناصر الاساسية التي اسهمت في تفجير الثورة المسلحة . وكان من الطبيعي ومن المقرر ان يحضروه . ولكن الاتصال بهم « قطع » بقدرة قادر . وهكذا احيل بينهم وبين حضوره . كأنما لأمر مُبيَّت. وقد عقد المؤتمر بعد اندلاع الثورة بعامين ، في الوقت الذي كانت فيه البورجوازية اللاوطنية ، التي ظلت طوال سنين تطالب بالادماج ، تعلن بين عشية وضحاها افلاسها وتوبتها فتصبح « وطنيـة » وتنضم للثورة . والممثل البارز لهـذه البورجوازية « التائبة » هو فرحات عباس ، رئيس الاتحاد الديموقراطي لحزب البيان الجزائري الذي كم سأل المقابر عن هوية اجداده فلم يجد لديها جواباً . وألهمه هـذا « الصمت » المطالبة بادماج الشعب الجزائري في الامة الفرنسية . وكان انضمامه في نيسان ١٩٥٦ ، بعـد مصرع شقيقه العميل برصاص الثورة .

كان الهدف ، الظاهر ، من عقد مؤتمر الصّومام اعطـاء الثورة المسلحة مذهباً اديولوجياً ، ومنظمات مَرْتَبَبِيَّة .

اما المذهب فبرنامج الصومام كان ابعد ما يكون منه . بل ان كلمة الاشتراكية لم ترد فيـه حتى سهواً . والتركيب الطبقي وطبيعة السلطة بعد الاستقلال لم تطرح اصلا . قُصارى ما دار فيه حديث غامض عن دور الطبقة الشغيلة الجزائرية في الثورة المسلحـة . وادانة للعنصرية في جزائر ما بعد الاستقلال . والتعاون فيها مع الاوروبيين غير الاستعماريين . وهذه النقاط مهما كانت ايجابية فانها لا تشكل ، بداهة ، اية اديولوجية بله الاديولوجيه الثورية . بل هي لم تكن حتى منهاجا متكاملا للعمل الثوري .ولا شك ان غياب الاديولوجيةالثورية والمنهاج الواضح←

لا جدال في ان المؤتمر حمل للثورة أبنيةً Structures ونظاماً مرتبياً Hiérarchie وتنظيماً كانت جميعاً مفقودة . ولكنه حمل اليها ايضاً . وفي

←من الثورة التحريرية قد تساعد كثيراً – مع اسباب أخرى اساسية أو رافدة - على تسلل البورجوازية « التائبة » الى قيادة الثورة ، وانغراس العناصر المحافظة والرجعية في صفوفها . وهي التي كانت تعطي الاوامر بتصفية المثقفين التقدميين والمناضلين الاشتراكيين الذين يلتحقون ، وبأيديهم السلاح ، بكتائب الثورة . وكانت الدعاية المعادية للافكار الاشتراكية تروّج على اوسع نطاق . بل لقد وصلت هذه العناصر الى حد رفض السلاح المعروض من جهات اشتراكية معينة الى ما قبل ١٩٦٠ . وكان مجيء لومومبا الى المسرح الثوري الافريقي والعالمي ، واقدامه على اجتياز « المنطقة الحرام » عامل ضغط اضافياً لارغام البورجوازية التي تسللت لقيادة الثورة ، بفضل سلسلة من الظروف المواتية منها : استشهاد بعض القادة التقدميين للثورة المسلحة مثـل « سي الاخضر » الذي ، كسراً لمؤامرة الصمت ، خلـّده الادب الشعبي في اغنية هي اليوم على كل لسان : « الله ينصر حزب الثوار » .ومنهااختطاف طائرة بن بلـّه ،وتصفية العناصر الاكثر انفتاحا على افكار التقدم مثل عبان رمضان ، وتوسيع عمليات التصفية في القـاعدة للعناصر الماركسية التي كانت تُعدم وتذبح من رفاق السلاح في الجبال . اقول كان مجيء لومومبا عامل ضغط آخر لارغام البورجوازية المتسللة لقبول السلاح « الاحمر » الذي كان لعدة سنوات مضت مخيفاً ومرفوضاً .

وكان برنامج الصومام يهدف ايضاً الى تطمين البورجوازية ألتـّائبة. وايضاً لتطمين الاتجاهات الاقليمية المعادية للقومية العربية المناضلة ، والتي لم تكن راضية عن صلة الوفد«الخارجي» بها ، وبالاخص على احمد بن بله الذي كانت قناعاته العربية المتحمسة تثير حفيظـة الكثيرين عليه . وربما قصد بيـان الصومام ادانته هو بالذات عندما نـدّد بما أسماه « النفوذ الخارجي على الثورة الجزائرية » . وهذا التحفظ لم يكن يقصد منه الحفاظ على استقلال الثورة الجزائرية التنظيمي والفكري الذي كان ولا يزال فريضـة ثورية لا مساومة فيها . والذي لم يكن وقتها مهدداً في شيء لا من مصر ولا من المعسكر الاشتراكي . ولم يكن تحفظاً من طبيعة السلطة الوطنية القائمة في مصر التي كانت في الواقع غامضة واسيرة مفاهيم قديمة لم تفكر في محاولة التخلص منها الا بظهور الميثاق عام ١٩٦١ . وانما كان تحفظاً من فكرة الوحدة العربية نفسهـا التي كانت ولم تزل تثير نفور الاقليميين والضالعين في ركاب الاستعمار الجديد، الامريكي والفرنسي، في الجزائر.
اما بخصوص وضع مؤسسات للثورة الجزائرية فانمؤتمر الصومام كان الى حد ما،على الاقل←

نفس الوقت ، جهازاً بيروقراطياً ووَرَقياً paperassier انفصل شيئاً فشيئاً عن واقع النضال وكانت غلطته ، بالأخص ، هي انه أدخل في تنظيمات القيادة شخصيات سياسية كانت ، على طول الزمن ، تعارض بضراوة الانتقـــال الى النضال المسلح ، والتي لم تخشَ غـــداة نوفمبر ان تشجب علانيـــة عملنا . بيد انها ، مع نجاح أسلحتنا ودعوة جبهة التحرير الوطني المؤثرة ، « تطور

--- ظاهريا ايجابياً : فقد شكل المجلس الوطني لقيادة الثورة(٥٤عضواً) لكن تركيبه لم يكن يرضي دائماً الديموقراطية الثورية . كما شكلت أيضاً لجنة التنسيق والتنفيذ التي أنيط بها تطبيق مقررات المجلس . وشكلت هذه اللجنة من خمسة اعضاء هم : العربي بن المهيدي ـ الستراتيجية العامة ـ عبان رمضان ـ التنظيم ـ كريم بلقاسم ـ الاتصال بين منظمات الحزب القائدة والمكافحين ـ سعد دحلب ـ الدعاية والاتصالات ـ يوسف بن خده ـ الاتصالات السياسية .

العربي بن المهيدي اعتقله المظليون بالجزائر العاصمة ومات تحت التعذيب في نفس الفيلا التي تعذب فيها قيادة المقاومة الشعبية اليوم . ورغم ان تحديد اسباب اعتقاله لم يتم ، على نحو اجماعي بعد ، أهو بصدفة أم بخيانة ، فان هناك ظنوناً تحوم حول يوسف بن خده ، رفيقه في التنظيم ، الذي كان معه على موعد في المكان الذي لا يعرفه سواهما. وفي الموعد المضروب حضر بن مهيدي ليجد المظليين في انتظاره . ولم يحضر بن خده .

أما عبان رمضان فقد صفـّاه في تونس كريم بلقاسم وبوصوف وزيرا الحكومة الموقتة .

وكريم بلقاسم أصبح « جلاد » الثورة ومجرمها المحترف . ورأس دعاة الاقليمية والانفصال. وهو الآن ، فيما اعلم ، ممثل تجاري لشركة غربية في الجزائر .

يوسف بن خده ، هو الذي اصبح فيما بعد ، في غيبـــة العناصر الثورية ، التي كانت اما استشهدت ، او صفيت ، او رهن الاعتقال ، رئيساً للحكومة الموقتة التي وقـّعت اتفاقيات إفيان مارس ـ اذار ـ ١٩٦٢، والتي فتحت ، لولا حزم السلطة الثورية فيما بعد ، الباب على ملائه امام الاستعمار الفرنسي الجديد .

وهذا وحده كان كافياًليجعل « الوفد الخارجي » للثورة وبالأخص بن بله وبوضياف يستقبلان انعقاد ونتائج وتركيب مؤسسات هذا المؤتمر بتحفظ . وكان من الممكن ان تقع ردود فعل حاسمة لولا حادث اختطاف طائرة بن بله الشهيرة .

هؤلاء الانتهازيون الى الأبد ، وقفزوا الآن في القطـــار السائر لينتفعوا بهذه الثورة التي احتقروها في البداية .

إن ألـبَلْـبَلَـة الفكرية والتناقض وانعدام المبادىء الصارمة والستراتيجية الثورية المدروسة كلها تربعت على رأس جبهة التحرير الوطني .وأسْرُنـَا بعد بضعة شهور من المؤتمر ترك المجال حراً لسياسيين مصابين بمرض الطفولة اليساري « Gauchistes » او محافظين ، لم يكن لهم في الواقع أي استعداد لقيـادة ثـــورة .

وهكذا ارتكبوا ، في قيـــادة الحرب الثورية ، أخطاء شبه كارثيّة ، ولم يعرفوا تقييم دور كل من المدينة والريف تقييماً صائباً ، في قيـادة حرب العصابات . لم يدركوا ان سكان المدن بما انهم يعيشون مندمجين في العـدو ، ان صح القول ، ومختلطين به ومطوقين بجهازه القَمْعي الضخم ، فانهم ، بأي حال من الأحوال ، لم يكونوا قادرين على الانتفاض الجماهيري عليه ، من غير أن يعرضوا أنفسهم لسحقه ، وشبكاتهم لتصفيته وأجهزتهم لتهديمه ومناضليهم لقتله وسجونه . ولأنهم لم يدركوا هذا ، فانهم في حركة جنونية أمروا بشن معركة الجزائر العاصمة ضد فِرَق جيش الاحتلال . وكما هو معروف ، فقد انتهت المعركة بهزيمة ساحقة لنا ، فأطاحت بتنظيمنا البلدي – Urbaine – وامتد تأثير هذه الهزيمة الى الريف فعزل وأضعف حرب العصابات فيه .

ثـَمّةَ اجراء آخر يحمل طابع المزايدة اليسارية الزائفة : اضراب المدارس. ففي يوم معلوم انسحب تلاميذنا من المدارس الفرنسية امتثالاً لأوامر جبهـة التحرير الوطني . وتوقف طلبتنا عن متابعة دروسهم واجتياز فحوصهم في الجامعات الفرنسية . انه اجراء أخرَق لم يضايق الخصم ولم يضرّ به في شيء

وانما أضرّ بنا نحن ضرراً عميماً ، إذ في اللحظة نفسها التي كانت فيه حاجاتنا للاطارات المتعلمة تزداد ، أفقد هذا الاجراء تلاميذنا وطلبتنا ، وبالنتيجة الدولة الجزائرية المقبلة ، شهوراً وسنوات من العمل .

لكن المأخذ الأشد خطورة الذي اوجهه للتنظيمات القيادية التي أوجدها مؤتمر الصومام هو تركها الولايات[1] بدون سلاح ، وبدون أدوية ، وبدون نقود . أعرف تماماً ان شبكات الخطوط الكهربية جعلت الوفاء بهذه المهمة بطريق البَرّ أكثر صعوبة . ولكنه بقي التهريب بطريق البحر ومئات الكيلومترات على الساحل التي كان يمكن استغلالها لتموين الثورة .

لقد أصيبت الولايات التي كانت متروكة ، محرومة من السلاح ومن التدريب ، بانهيار كان من الممكن تلافيه ، فانطوت على نفسها بدون رابطة اتصال بالخارج ، وأحياناً ، بدون رابطة اتصال فيما بينها . وظلت تعيش في اكتفاء ذاتي في جهات أخذت تعتبرها إقطاعات – Fiefs – حيث انتهى الأمر ببعض القادة العسكريين الى اكتساب عقلية الاقطاعيين او رؤساء العصابات .

مهما أدنّا « الولائية[2] » وعواقبها الوبيلة عند الاستقلال ، فاننا لا نستطيع أن نَفِي القول حقه عندما نقول ان المسؤولية الأولى في هذه التصرفات الشائنة لا تتحملها الولايات نفسها التي كان لها على الاقل ، فضل خارق للعادة هو مواصلة النضال في ظروف عصيبة . بل يتحملها جهاز بيروقراطي ، تكرس لعمله الدولي ، والمنافسات الشخصية ، ولم يُعر اهتماماً كافياً لمحاربي القاعدة .

---

(١) الولاية هي المنطقة العسكرية في الثورة . – المترجم –

(٢) نزعة ولدت بعد الاستقلال في الولايات التي كانت كل منها تتصرف كما لو كانت دُوَلية. – المترجم –

اعود الآن للحديث عن أسْري . ففي يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ ، ضلّت الطائرة المغربية التي كانت مخصصة لنقل المسؤولين الهامين بالخارج وانا نفسي من الرباط الى تونس – ضلّت طريقها بمشاركة قيادتها الفرنسية ، امتثالاً ، لأمر أُنفِذَ اليها بالراديو من قيادة اركان الجيش الفرنسي بالجزائر . ونزلت الطائرة بالعاصمة الجزائرية . وكان بانتظارنا سِرْبٌ من المصفحات وافواج من الدركيين.

هذه هي الوقائع . ولتثمينها ، فانه من الضروري وضعها في مكانها من المضمون الاساسي لتلك الفَتْرة ..

كنا دخلنا في اتصالات مع حكومة الرئيس « غي موليه » ، منذ عام ، لمحاولة وضع نهاية لحرب الجزائر باتفاق نتفاوض عليه . وقد اجرينا خمسة من هذه الاتصالات : واحداً في القاهرة ، واثنين في بلغراد واثنين في روما .

وفي آخر موعد في روما،استغرق جزءاً من شهر سبتمبر –ايلول– ١٩٥٦، لم يكن مفاوضنا السيد كومين ، اذا لم تخني الذاكرة ، عضواً في الحكومة الفرنسية ، ولكنه كان سكرتيراً مساعداً للحزب الاشتراكي الفرنسي ؛ لقد كان اذن وثيق الصلة بالرئيس غي موليه . وقد تسلم منه كل التفويضات الضرورية .

في سبتمبر انتهينا أخيراً الى اتفاق ، وقررنا ان يعود كل منا الى بلده لتوقيعه بصورة نهائية . وبعد ذلك نعود الى روما لاتمام المفاوضات بصورة فعليه وعلنية .

وكانت عودة كل منا الى بلده ، تعني بالنسبة لنا الحصول على اذن بالمرور لأثنين منا ليدخلا الى الجزائر ونحيط مناضلي الداخل علماً بالشروط التي قدمت لنا . واندهشنا لرؤية حكومة غي موليه تتلَدّدُ كثيراً . انها

بوضوح ، لم تكن متأكدة من جعل عسكرييها يأتمرون بأوامرها . بيد انه استجابة لألحاحنا ، وعدتنا باعطاء جوازات مرور .

كنا اذن نفكر اننا على ابواب السلام، عندما دبر لاكوست والعسكريون، بدون علم الرئيس غي موليه ، هـــذا العمل اللصوصي العالمـي الذي دعوه « ضربة الطائرة » .

ووضعوا الحكومة الفرنسية امـــام الامر المقضي، وضُعْفاً منها قبلته . وهكذا استسلمت امـــام العسكريين دافنة بيديها السلام الذي ترغب فيه ، ومُدينة ، في نفس الوقت ، والى امد بعيد ، المؤسسات التي انتجتها . كم من دماء وآلام كانت ستدخر لو كانت اكثر حزما ! كان الجزائريون سيقتصدون ستة اعوام من الحرب ومن الخسائر الفادحة التي سببتهـا لهم . وفرنسا ، من جهتها ، كان يمكن ان تتفادى الهزّات الرهيبة التي قادتها الى شفا الخراب الذي تكاد لا تنهض منه .

* * *

إن تسلسل الاسباب التافهة ، ظاهريا، التي تفسر حضورنا في هذه الطائرة في ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ جدير بان يُرسم ثانيا ، ففي إثر محادثات رومـــة مع رسول الحكومة الفرنسية ، تم الاتفاق على ان نعقد في تونس العاصمة اجتماعاً تشارك فيه دول افريقيا الشمالية الثلاث : فبدافع اللياقة والصداقة كنا نرغب في ان نخبر المغرب وتونس ، اللذين ساندا جهود الثورة الجزائرية ، بشروط السلام التي عرضت علينا .

عقدنا سلفاً اجتماعاً للمسؤولين في مدريد . واثناء اقامتنا بالعاصمة الاسبانية قدم الينا رسول من مولاي الحسن وأعلمنا بان السلطان يرغب في رؤيتنـا في

الرباط فيما يخصني على الاقل لم يسرّني مشروع هذا السفر ؛ فقد كان المغرب ما يزال تحت احتلال الفرق الفرنسية ، واليد الحمراء ، التي شهرت نفسها فيما بعد بارتكابها على ترابه اغتيالات شهيرة، كانت قد برهنت على نشاطها القوي. ورغم هذا كنا نشعر باحترام للسلطان اقوى من ان يجعلنا نتملص من دعوته.

وفي الرباط اتفقنا على ان نذهب الى تونس برفقة محمد الخامس لنعقد ندوتنا المغربية . إذا كانت الطائرة مغربية فان قيادتها ، كما سبق ، كانت فرنسية . ولكن حضور ملك المغرب في الطائرة نفسها بدا لنا انه يشكل ضمانة كافية لكن ، لسوء الحظ ، أشعرنا القصر بأنه ، لعدم توفر المقاعد ، فاننا لم نكن نستطيع أن نصعد في طائرة صاحب الجلالة ، وبان طائرة ثانية ستوضع على ذمتنا . استأت كثيراً من هـــذا الخبر . ولكننا كنا في يوم ٢٢ اكتوبر : واجتماع تونس العاصمة كان محدداً ليوم ٢٣ اكتوبر . ولم يكن الوقت يسمح بالقدوم الى تونس عن طريق مدريد . فقبلنا اقتراح القصر . كنا نتصور في ذلك العهد ان السلام كان على الأبواب ، وان الحكومة الفرنسية التي كانت تبدو شديدة الرغبة في إمضائه ، لا تستطيع ان ترضى بتخريبه ، بالسماح لعملية تدبر ضدنا ، وهذا ما كان في النهـــاية خطأنا . لقد بالغنا في تقدير حكومة الخصم : في التحام وَوَلاءِ الوزراء والعسكريين لرئيسهم وكفاءة هذا الرئيس في جعل أوامره ُتسمع وُتطاع .

كنا نعتقد بانه كانت لنا كل الاسباب الباعثة على الامن . ولكن الغريزة ، وهي في مثل هذه المواقف ، أفضل ُمشِير من العقل، لم َتدَعْني في ارتياح . وفي اللحظة التي كانت فيها طائرة – D. C. 3 – التي ستقلنا الى تونس ُتقلع من مطار الرباط ، أحسست بتخوف وهمست به الى خيضر فأخذ في الضحك قائلا لي في َلجاَجة : « أوه ، انت ، انك تتحذر دائماً » . وأعتقد انه أخطأ

هنا . لأنه ليس من طبيعتي ان اكون دائماً على حــذر . فرغم اني أحمل مسؤوليات ثقيلة واني هدف لاحقاد كثيرة فاني ابعد ما اكون عن الحذر الكافي الذي يجب أن يكون عندي .

في تلك اللحظة ، مع هذا ، كنت حذراً . ولكن بعد فوات الوقت . وازداد تخوفي في الطائرة عندما لاحظت تصرف المضيفة. ولما وصلت وضعت مسدسي في عُلبَةِ المقعد الذي كان أمامي . ولست أدري ما اذا كانت قد رأت حركتي ، ولكنها دارت لحظة طويلة حولي ، ثم انتهت بوضع يدها على القفل السريع للعلبة ، فأوقفتها قائلاً لها بخشونة :

- اتركيه ، لقد وضعت هنا اشيائي .

فانتصبت ، في اضطراب شديد ، ودون ان تَنبس ببنت شفة انطلقت نحو غرفة الطائرة ، وأدركت انها ذاهبة لتقديم تقريرها .

علمت فيما بعد ان الخصم قد اتصل بقائد الطائرة الفرنسي وطلب منه ان يهبط في وهران ، وقد رفض القائد في البداية . حتى انه اعــلم السلطات المغربية بالاغراء الذي كان موضوعــاً له . وأمرته الرباط بالعودة فوراً الى المغرب . فما الذي حدث اذن ؟ هل ان الرد لم تلتقطه الطائرة ؟ ام ان السائق كان قد قرر تسليمنا لفرنسا ؟

مهما يكن من شيء . فإن الطائرة عندما هبطت للاستراحة في بالمــا دوماجورك [1] Palma Demajorque كانت الرباط تعرف ان محاولة لاختطاف طائرتنا قد حصلت . هل كان القصر ، في غيبة الملك ، بدون مبادرة ؟ إن ذلك ممكن كثيراً . لأنه كان يستطيع ، فيما يبدو ، ان يطلب

---

(١) من جزر اسبانيا . - المترجم -

في تلك اللحظة من السلطات الاسبانية بان تمسك الطائرة التـــابعة له في مطار بالما .

حسب ما عرفته فيما بعد ، فان ما جعل قائد الطائرة الفرنسي يتردد طويلاً كان خوفه من تعريض عائلته، التي كانت تسكن المغرب ، الى الانتقام. ولم يستسلم ، فيما يبدو ، للضغوط القوية التي كان ، بالراديو ، موضوعاً لها الا عندما أعطته قيادة الأركان الفرنسية الضمان بان عائلته ستوضع فوراً في حماية من طرف المصالح الفرنسية في المغرب . وهنا ، وهنا فقط ، قرر تسليمنا .

إن عواقب اعمالنا غالباً ما تفجر بعيداً عنا احداثاً لم نتوقعها . فالقائـد الذي ُطمّن على مصير عائلته الخاصة لم يسمح لنفسه بالشك بان عائلات أخرى فرنسية ، جرفها غضب الجماهير المغربية الجامح امام الشتيمة التي تعرض لهـا ملكها ، ستدفع ثمن قراره من حياتها البريئة .

* * *

بعد قليل من استراحة بالما ، بدا لي ان الطائرة لم تكن تتبع طريقهـــا العادي وانها كانت تتنحّى كثيراً نحو الجنوب. قلت ذلك للمضيفة ،فاضطربت من جديد وأجابت:

– من الممكن اننا نأخذ طريقاً أكثر استقامة .

فوثبت : – كيف اكثر استقامة؟ هل سنمر اذن فوق التراب الجزائري؟
قالت لي على عجل : – كلا .. كلا . ولكننا نستطيع ان نأخـذ اقصر طريق ..

اترك وصف مشاعري عندمـــا لمحت بعد الهبوط أن الطريق « الاكثر استقامة » كان يمر بمطار الجزائر . وانتصبت ، ممـلأ من الغضب ، وأخذت

مسدسي من العلبة ، فقال لي احد اصدقائنا وهو يضع يده على ساعدي :

–لا . لا . دع سلاحك حيث هو . لا تعطهم هذه الذريعة الجميلة !..

اعتقال في مطار الجزائر.. كم كان انتشار الجنود هناك لأسر خمسة رجال! كان في الطائرة فرنسيتان : ايف ديشامب Eve Dechamps من جريدة فرانس – اوبسر فاتور، وكريستيان داربور Christiane Darbor . وقد استشاطتا غضباً من القرصنة التي شهدتاها . واخذتا تشتمان بعنف بالغ رجال الدرك الذين اقفوهما بعد ان اساؤوا معاملتهما بما فيه الكفاية وادخلوهما معنا في نفس سيارة الشحن . ولكن هذا لم ينل من شجاعتهما واستمرا يحتجان .

كان جو مشؤوم يسود السيارة التي كانت تتقدمها وتتعقبها دمدمة الدبابات وصفير الدراجات النارية. وكانت محشوة بالدركيين الذين كنا محصورين بينهم وكنا هدفاً لشتائمهم، فلم نكن نستطيع ان نتحرك الا بصعوبة بالغة . كنا مقتنعين باننا سنُغتال بالمشاركة الصامتة من السلطات الاستعمارية،ولهذا صمتنا ولم نشأ ان نبذر اللحظات الاخيرة من حياتنا في كلام لا نفع فيه .

انتهى صمتنا بفرض نفسه على الحراس الذين صمتوا هم ايضاً . وفي هذه اللحظة اقتربت مني ايف دوشان ودون ان تَفُوه بكلمة امسكت باحدى يدي وضغطت عليها . هذه البادرة المتناهية في البطولة والكرم لا توجد في أية لغة « كلمة شكر » جديرة بها .

في مركزالشرطةالقضائيةبالابيار استنُطقناعلىالتعاقب منجميع افرادالبوليس الذي كانفيتلك اللحظةموجوداً بالجزائر.والله يعلم كم كانعديداً ! ثم جاء دور العسكريين فتقدم لواء Génèral لرؤيتنا . وكنت أجهل اسمه . ولم يقدم نفسه لأسراه . كان يريد بالخصوص ان يعرف كيف نرى منظورات النضال

الآن بعد وقوعنا في الأسر . وبوغت عندما رآنا متفائلين جداً .

كنا في يوم ٢٩ اكتوبر وكانت فرنسا وانجلترا قد هاجمتا مصر ، فزارنا عقيد ، آه كم كان العقداء مشؤومين على الجزائر ! وبالرغم من انه كان يتمتع بهيأةرجل شجاع فانه شرح لي بان فرنسا وبريطانيا ستصفّيان حسابات ناصر ، بعد ان صُفيت حساباتنا نحن . وبالتالي لن تبقى في مصر والجزائر ثورة . وسيعود كل شيء الى النظام . كنت أشاهده مندهشاً : احياناً كم يكون الرجل العسكري غبياً !

وسمحت لنفسي ان اشرح له بدوري ، بان ثمة « قوى » غير « القوة » : هناك الرأي العام . والوضع الدولي . ومطامح الجماهير . وقلت له ان الثورة الجزائرية تجاوزت المرحلة التي يرتبط فيهـــا مصيرها بمصير اربعة أو خمسة مسؤولين ، وبأن شيئاً لم يكن قد بلغ نهايته . بل بالعكس ان كل شيء كان في بدايته ، فهزهز رأسه استخفافاً . وكان دائمـــاً يعود لنفس نقطة البداية : لم يعد هناك ناصر ولم يعد هنـــاك بن بلـّه ، اذن ، سُوّيت المشكلة .

كان موقف البوليس منا ، خلال الثمانية او العشرة ايام التي قضيناها في الجزائر ، مقيتاً . فقد كان الشرطيون يوسعوننا سخرية . ولم أزل أذكر ان احدهم ، بحضر الصحافة ، التي عُرضنا أمامها ، دعاني مستخفاً : « سيدي رئيس مجلس الوزراء » واغتنمت فرصـــة حضور الصحافيين للاحتجاج على الاهانات التي كنا يومياً موضوعاً لها . ومضيت الى القول : بانهم بالتأكيد قادرون على قتلنا خلال « محاولة فرار » ولكن لا شيء من التهديد ولا من الشتائم يمكن ان يوهن اصرارنا،واننا لسنا خائفين لا من الأسر ولا من الموت، وان الثورة ستستمر بدوننا . وستنتهي الى النصر .

كان الصحافيون الذين يستمعون الي" يبلغون الاربعين، ولكن واحداً منهم لم ينشر كلماتي . وهكذا كان لي كل الوقت الكافي لارى عياناً « الموضوعية » الشهيرة للصحافة الغربية ، بل إن بعض الصحف ذهبت الى حد تحريف كلامي فخفضت كل تدخلي الى مستوى نكتة حقيرة فكتبت : « اشتكي بن بله عندما دعاه احد الشرطيين سيدي الرئيس » .

بعد عشرة ايام، أعطي الامر باحالتنا على سجن لاسانتي LaSanté بباريس. وقد سافرنا اليه بالطائرة وايدينا مثقلة بالاصفاد . وكان كل واحـــد مخفوراً بدركيين . ولا شك ان هولاء قد تلقوا تعليمات جد صارمة . لأنهم لم يفوهوا بكلمة حتى لاجابة احدنا عندما لاحظ مراراً بأن رِسْغَيْه كانا مضغوطين كثيراً .

في لاسانتي أُخضعنا في البداية لنظام رقابة صارمة . فطوال اربع وعشرين ساعة على اربع وعشرين ساعة، كان مِصْراع النافذة الصغير ينفتح كل دقيقتين لتتمكن عين احد الحراس من رَصْدِنـا وقد علمنا فيما بعد ان سلطات السجن كانت تخشى ان ننتحر ... فيا للجهل الذي لا يصدق بعلم النفس الذي تفضحه هذه المخاوف ! إن الثوري الحقيقي لا ينتحر . ذلك انه يعبر عن اعمق رغاب شعب برمته، فهو لا يستطيع ان ييأس من نصره...

بقيت ست سنوات في السجن . ست سنوات ... إنها فترة جد طويلة . ولكني لا اتأسف عليها ؛ فقد انضجتني كثـــيراً وقوّتني . ليس كالسجن مكاناً شريفاً للمناضل السيء الحظ . انني اليوم ايضاً على استعداد للعودة اليه بدلا من ان اخون القضية التي اخدمها .

بالتأكيد كانت الفترة الاكثر قسوة من أسْرِنا هي السنتين والنصف التي

قضيناها في لاسانتي ثم في مارس (اذار) ١٩٥٩ حوّلنا ديغول الى جزيرة اكس Aix [1] حيث تحسنت شروط حياتنا .

ومن جزيرة اكس حَوّلنا الىضفاف لالوار Laloire حيث عشنا في تيركان Turquant من مارس ١٩٦١ الى نهاية ديسمبر من نفس العـام . وآخر مكان اقامتنا كان أولنوا Aulnoy ومنه تابعنا بواسطة اصدقائنا في الخارج مراحل مفاوضات إفيان .

ولقد قمنا باضرابات جوع كثيرة خلال فترة اعتقالنا ، لم يكن لها جميعاً الا هدف واحد : هو ان نؤمن لاخواننا ولنا حقوق المعتقلين السياسيين .

وخلال كل اضراباتنا عن الطعام كنا نشرب الماء . فالمرء لا يستطيـع ان يعيش طويلاً بلا ماء . اذ ان على المناضل المضرب ان يعيش مدة اطول للفت انتباه الرأي العام ، وإقلاق السلطات والتأثير على قراراتهم . ان المضرب عن الطعام مناضل من طينة خصوصية . انه لا يهدف الى قتل العدو بل الى قتل نفسه لتلطيخ العدو بالعار . انه بانتحاره البطيء يرمي في وجه عدوه بموتـه المقبل. وفي تيركان دام آخر اضراب عن الطعام اثنين وعشرين يوماً، وانتهى بالنسبة لنا ، في مستشفى دوغارش. كان صياماً تضامنياً. لان دوبري Debré حاول الرجوع عن الحقوق السياسية الممنوحة لمسجونينا السياسيين ، في بعض السجون ، وفي حركة اجماعية شن خمسة عشر الف جزائري ، بما فيهم النساء

---

(١) عندما اعلم ديغول مجلس الوزراء بهذا التحويل قال له غيومات : « يبدو جنرالي انه من واجبي ان انبهكم الى ان الجيش وفرنسيي الجزائر لن يفهموا هذا الاجراء بدون شك .. » فقاطعه ديغول بقوله : « كانت عندنا دائماً اجراءات رحمة . اما الجيش فانه وجد ليطيـع . امـا فرنسيو الجزائر فانهم فرنسيون كالآخرين ، وكالآخرين يجب عليهم الامتثال للحكومة » . هذه الفقرات ساقها كلود باليات في « الملف السري للجزائر » ج - ١ - ص ١٧٤ .

اضراب الجوع في نفس اللحظة . ولم يقع اي إخلال . انه لشجاعة عجيبة عندما نفكر بهول التعذيب وهول الاخطار التي يجرها على المعنيين الحرمان من الطعام .

واحدى الوقائع الاكثر اثارة للعجب في اسرنا هي ، انه بقوة الاشياء ، اصبح حراسنا هم ايضاً المدافعين عنا . في الواقع كنا في خطر دائم . كان المتطرفون الفرنسيون يجدون فضيحة في بقائنا على قيد الحياة. وكانوا يتآمرون لاختطافنا واعدامنا .

فغداة ١٣ ماي ١٩٥٨ [١] اغتنمت احدى لجان « الانقاذ العمومي » فوضى الساعة وتقدمت لسجن لاسانتي لـ « أخذنا في عهدتها » فقوبلت بالرفض الصريح . ولم تكن تريد ان تغامر بجلدها لتحصل على جلدنا، ولذا انسحبت .

استمرت محاولات التآمر علينا. في فترة ما ، بجزيرة اكس ، كان يحرسنا مئتا دركي متنقلون . وكانوا يتخذون احتياطات مشددة . ولما استغربنا ذلك منهم، لم يكتموا عنا انهم كانوا مكلفين بالمحافظة على حياتنا اكثر منهم بالحيلولة دون فرارنا .

وفي تيركان ثم أولوا ، كلما تقدم السلام كانت الشائعات الاكثر بعداً عن التصديق تروج . كان يقال ان منظمة الجيش السري – O. A. S. كانت تحضر ضدنا هجوماً مشهوداً . وفي وقت ما تحدث البعض عن قذائف روكات Rockets القيت من طائرة . ولست ادري اذا كانت الحكومة الفرنسية قد اشعرت المدفعية بضرورة حمايتنا . ولكن يقظة الدركيين المتنقلين الذين

---

(١) تاريخ التمرد العسكري الذي قام به الضباط الفرنسيون في الجزائر فاطاحوا بالسلطة المدنية وسلموا الحكم للجنرال دوغول . - المترجم -

يحوطوننا كانت ناجعة . اما نحن فلم نبق بدون نشاط . وبفضل اتصالاتنا بالخارج نظمنا فرقاً فدائية كانت على استعداد للصدام عند اقل استنفار .

وفي النهاية لم يحدث شيء . وكان الضحية الوحيدة ، كما نعرف ، رجلا لم تكن له اية صلة بالثورة الجزائرية : السيء الحظ شيخ مدينة ايفيان Evian .

وطوال الوقت الذي استغرقه اسرنا ، كانت الانباء التي تصلنا من الخارج تحزنني بعمق ... وبالتأكيد كان لا بد من تأليف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، ولكن كان ينبغي تحديد صلاحياتها ومدتها ، بدون اقامة جهاز كان يمسخ يوماً فيوما الى ،وظيف[1] سياسي Mandarinat Politque . ان الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية كانت في الواقع تتصرف كحكومة ووزراؤها كانوا يمثلون دور الوزراء ، وكانت مهتمة بالنضال الدبلوماسي اكثر بكثير من اهتمامها بنداءات النجدة ، اليائسة في الغالب ، والآتية من محاربي الداخل .

وابتداء من هذه اللحظة وُجِدَ ، جنباً لجنب ، واقعان في الثورة الجزائرية : احدهما كان متناهياً في القسوة وهو واقع محاربي الداخل ولاجئي الحدود . والآخر كان واقعاً زاهياً وممتازاً هو واقع بعض وزراء الحكومة الموقتة . هؤلاء كانوا يعيشون كما كانت تعيش بعض الانظمة الافريقية التي افضل عدم ذكرها ... باختصار ، كان كل شيء مُعَدّاً لكي يُنصَّب غداة

---

(١) في القديم كانت لفظة ماندرينا تطلق على طراز مخصوص من كبار الموظفين الموقرين في الصين . ويقصد به في الاستعمال الحديث فئة : البيروقراطية المتسلطة بوسائل الحول والحيلة على اجهزة في اساسها سليمة او ثورية . وترجمتها بوظيف اجتهاد شخصي قابل للمراجعة. ـ المترجم ـ

التحرير ، ببركات واسعة وتواطؤات لا تحصى ، نظامُ حكم سهل ومتعفن ، كان سيترك الشعب الذي حارب غارقاً في بؤسه .

ليس سراً على احد اني كنت في البداية مناوئاً لاتفاقيات إفيان . لاني وجدتها ظالمة. بيد اني قبلت توقيعها عندما حُسّنت وفاقاً لاقتراحاتنا؛ ووضعت شرطاً آخر لموافقتي : ان تلتزم الحكومة الموقتة بعقد مؤتمر اثر ايقاف اطلاق النار لتحدد الخط السياسي للحكومة المقبلة .

من الصعب ان يصدق المرء ان اطلاق سراحنا كان موضوعاً لخلاف جدي بين الحكومة الفرنسية وبيننا . لأن ديغول كان يريد ، بلباقة ولياقة ازاء المغرب ، ان يضعنا بين يدي الحسن الثاني . وقد رفضت كلياً ذلك . لقد لُدغت مرتين . ولن اطير ، من جديد ، في طائرةٍ فرنسية ، تعبر الشمال الافريقي . وأصرّ قصر الرئاسة الفرنسية واصررت انا ايضاً. وقلت لرسوله: « هل انا طرد ، هل انا شيء لكي يعاد وضعي في المكان المعين الذي اخذت منه ؟ كلا . كلا ، سأختار المكان الذي سأذهب اليه ، وأريد ان اذهب الى سويسرا ، لا الى المغرب . »

دامت المناقشات خمسة ايام . وفي لحظة ما ، هُدّدنا بان نُؤخَذ عنْوَة – Manumilitari – ونُسلم كارهين للرباط . وفي النهاية تخلى قصر الرئاسة. وكان ذهابنا من أولوا في ١٩ مارس – آذار – ١٩٦٢ قد نُظم باحكام . فقد خرج الركب الاول ولم نكن فيه . وانما كان هدفه خدع الصحافيين ومن المحتمل ايضاً خدع منظمة الجيش السري . اما الركب الثاني ، فقد اوصلنا بطرق ملتوية الى مطار أورلي ORLY .

عشت خلال ست سنوات معزولاً عن العالم ، بدون نوافذ على الخارج .

ولكن العالم اثناء غيابي كان قد تحول ، والتيكنيك الفرنسي كان قد سجّل تقدماً . لقد انبهرت بطائرة كارافيل Caravelle – التي اخذنا فيها امكنتنا . لقد اعجبتني الطائرة من الوهلة الاولى باناقة خطوطها . وعندما تحركت للاقلاع احسست بانفعال رائع بالقوة وبالتحليق الذي يمتزج ، تقريباً في فكري ، بانتشائي بحريتي المستعادة .

الفصل السادس

غداة الاستقلال

منذ نزولنا بجنيف اخذنا السويسريون على عهـــدتهم وقادونا الى سينيال دوبوجي حيث كانت الحكومة الموقتة بانتظارنا. وتقع سينيال دوبوجي تجاه افيان المنتصبة في الجانب الآخر من البحيرة، حيث دارت المفاوضات. وكانت سينيال دوبوجي قلعة حقيقية تحوطها الاســلاك الشائكة ، ويحرسها الدرك السويسري ، وتحوم فوقها بدون توقف طائراته العمودية .

كان هذا بعد ست سنوات من السجن اول لقاء بالواقـــع الذي وجدناه مريراً . أما السادة اعضاء الحكومة الموقتةفلم يكونوا اطلاقاً مسرورين بلقائنا الذي كان قلبياً على السطح ومثلجاً في الاعماق . ولم اقض الا يومين او ثلاثة في سينيال دوبوجي التي كان يسود فيها جو خانق من الدسائس. لقد كان كل شيء نظرات منحرفة ، وضحكات زائفة ، وهمسات .

بيد ان المغرب كان يطلبنا . وقد استأجر خصيصاً طائرة بوينج لنقلنـا اليه . ولكن في آخر لحظة ظهرت صعوبة . ذلك ان الحكومة الفرنسية، التي لم تغفر لنا أننا فوّتنا عليها مبادرتها المتأدبة نحو السلطـــان ، حظرت على طائرتنا البائسة الطيران فوق التراب الفرنسي . فكان علينـــا اذن ان نمر

بايطاليا وان نعبر البحر الأبيض من الشرق الى الغرب .

ومن المغرب حيث كان استقبال الجماهير لنا ممتازاً ، ذهبنا الى مصر حيث كان استقبالنا رائعاً ، اما في العراق فقد كان فوق حدود الخيال ... ولكن هذا الاستقبال الودي لنا كان يحمل اشواكاً لقاسم . لأن الجماهير كانت تضيف للهتاف لنا هتافاً ضد قاسم . ومن المطار الى القصر كان مدّ بشري لا يُرد قد نجح في محاصرة سيارتنا . وقد تمدد البعض على مقدمة السيارة والبعض على مؤخرتها وآخرون ملتحمون بالزجاج الجانبي وهم يهتفون، مقطبي الجبين ، بشعارات عدائية لقاسم . ومن وقت لآخر يقطعون هتافهم ضده ليهنئونا ، والابتسام على شفاههم ، بنصرنا. ولم أر في حياتي قط جموعاً تنتقل بمثل هذا النشاط والرشاقة من الحب العارم الى المقت العارم .

وبعد هذا وضَعَنا قاسم في قصر معزولين عن باقي العالم. لقد كان هو نفسه يعيش في اعماق ثكنة لا يخرج منها ووسط فرق الجنود التي لا يعرف هو نفسه ما اذا كانت لم تزل وفيّة له . لقد كان نظامه مثل دار من اللوح قرَضها من الداخل دود الخشب ، وهو نفسه كان ملغوماً باثقال الهموم . لقد كان من المستحيل تقريباً الحصول على محادثة منسجمة ومتواصلة معه. لقد كانت تُحركه عصبية لا مثيل لها ، وكان ينتقل من موضوع الى آخر كل عشر دقائق . كان يقوم ، ويهيم بلا هدف في الغرفة ، وما يكاد يعود للجلوس حتى يقوم مرة أخرى . لقد كان واضحاً ان اعصاب هذا الرجل كانت مريضة . وربما عقله كان مُصاباً ايضاً . فلم يعد يستطيع ان يسيطر على نفسه . اما مفاهيمه السياسية، بالقدر الذي استطعت ان اصل الى فهمه منها ، فقد كانت مذهلة .

* * *

كما سبق ان ذكرت الححت على ان تعقد الحكومة المؤقتة مؤتمراً فور حصولنا على حريتنا . لقد أعترف بسيادة الجزائر . ولكن هذه السيادة ليست الا شكلاً قادراً على احتواء مضامين مختلفة . وهذا بالضبط ما كان نقطة الضعف في جبهة التحرير الوطني . اذ لم يكن لها لا منهاج مرحلي –Programme– ولا مذهب والثورة الجزائرية كانت ثورة بدون ادبولوجية: هذه الثغرة التي سمحت ، زمن الحرب ، باتحاد الجميع الواسع ضد القوة الاستعمارية ، ولكنها بعد عودة السلام اصبحت فراغاً خطيراً ، لان اتفاقيات افيان كانت تشكل زواجاً من طراز استعماري جديد . وكان ، اذن ، لا بد التملص من مثل هذه الزيجات المغشوشة Sournoises Épousailles – التي وجدها بعض اعضاء الحكومة المؤقتة مطمئنة لهم . وكان لا بدّ من اعطاء الاستقلال مضموناً يدعمه .

لقد اعددنا، في اولنوا، منهاجاً مرحلياً تفترض كل اختياراته بان الجزائر قد اختارت لنفسها أبنية اشتراكية . وللمرة الاولى استطاع ممثلو الداخل الالتحاق بممثلي الخارج للدرس والتشاور . وحضور هؤلاء المناضلين كان حاسماً لاختيار منهاجنا المرحلي . وفي الواقع لم يَلقَ معارضة هامة ، لا لأن المؤتمرين كانوا جميعاً اشتراكيين ، بل لأن الذين لم يكونوا اشتراكيين كانوا بدون شك يفكرون بالبَوْن البعيد بين المصادقة على منهاج وبين تطبيقه .

ولكن الامور ساءت عندما بات واضحاً ان اصوات المؤتمرين ستنتخب مكتباً سياسياً لا يوجد فيه اي عضو من الحكومة المؤقتة . وتذرّع هؤلاء بشجار نشب بين بعض المؤتمرين ليعلنوا انسحابهم من المؤتمر واعتبروه لاغياً .

ان وقاحة وسفاهة هذا الموقف تركتنا ، للحظة ، في ذهول . لأنه يعني :

« حسناً . اننا ننصرف من هنا . وبانصرافنا فان شيئاً لم يحدث . واننـا لم نقترع على المنهاج المرحلي . وان المؤتمر لم ينعقد ... »

اصدقاؤنا الذين استقبحوا هذه المناورة ارادوا ان يعلنوا فوراً تركيب المكتب السياسي رسمياً . وفي البداية كنت الوحيد الذي عارض ذلك . ولكن رأيي انتصر في النهاية. لان منظمة الجيش السري كانت ما زالت جد قوية، بالاخص، في وهران، حيث كان بعض اعضائها يريدون الانفراد بجزء من التراب الجزائري يجعلون عليه حضورهم ابدياً ومن جهة اخري كان المجلس التنفيذي الموقت[1] – الذي سميت اغلبية اعضائه من قبل الحكومة الفرنسية – يتصرف في قوة بوليسية محلية تتركب من ألـحَرْكِيَّة[2] Harkis والجنود القدامى في الجيش الفرنسي. وهذه القوة المحلية كانت ، من حيث المبدأ، مرصودة لمحاربة منظمة الجيش السري ، ولكنها كانت تستطيـع ان تلعب دوراً آخر لو انفجرت جبهـة التحرير الوطـني على مرأى من الجميـع ومسمع ، الى زمر متنافسة تَقْتَتِلُ بلا نهاية .

ان انهـاء مؤتمر طرابلس باعـلان تركيب المكتب السياسي ومعارضـة الحكومة الموقتة به حتى قبل ان يسفر الاستفتاء عن اعلان الاستقـلال كان سيخدم منظمة الجيش السري ويشجعها في احلامها بتقسيم التراب الجزائري ، ويشجع ايضاً المجلس التنفيـذي الموقت على الاستمرار الطويل في السلطة ممثلاً دور الحَكَم .

---

(١) تنص اتفاقيات افيان على تكوين سلطة مرحلية تتولى تسيير الشؤون الادارية في فـترة الفراغ التي تفصل بين ايقاف اطلاق النار مارس آذار – ٦٢ واعلان الاستقلال ٥ جويليه – تموز – ٦٢ . – المترجم –

(٢) الحركية هم الجزائريون المرتزقة الذين كانوا قوام الجيش المعادى للثورة . –المترجم

ولذا فقد تم الاتفاق على ان الصّدْعَ الذي لا يجبر والذي حصل في صفوف جبهة التحرير الوطني ، والذي تتحمل مسؤولياته كاملة الحكومة الموقتة ، لا يعلن على رؤوس الاشهاد قبل نتيجة الاستفتاء. وهذا الاستفتاء باعلانه إستقلال الجزائر المدعم بالارادة شبه الاجماعية للجماهير ، سيخلق ، من وجهة النظر الداخلية ومن وجهة النظر الدولية ، وضعية لن تستطيع لا منظمة الجيش السري ولا المجلس التنفيذي الموقت وضعها موضع الشك .

التحقت مع اصدقائي بالحكومة الموقتة في تونس . واترك لكم ان تتخيلوا كم كان الاستقبال حاراً؛ذلك لأنهم كانوا يشعرون بان القضية لم تُحسم بعد. وكانوا مصممين اكثر من الماضي على التمسك بالسلطة . ان الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية التي اعترفت بها عدة دول ، والقوية بأجهزتها،وبعلاقاتها مع الصحافة وبتواطؤاتها السرية ، كانت تريد استصفاء الثورة لصالحها وجعل منهاج طرابلس المرحلي ينام على الرفوف .

كانت الحكومة الموقتة حَذِرَةً من جيش التحرير الوطني بسبب ما كانت تعتقد انها تعرفه من بعض الاتجاهات التقدمية في قيادة اركانه،وحتى قبل الاستفتاء فقد بدأت تسقط في الولايات رسلها الذين كانوا مكلفين إما بأخذ قيادتها وإما بتحريضها على جيش التحرير الوطني باقناعها بانه عندما يدخل جيش التحرير الى الجزائر فسينفذ حلمه بانقلاب عسكري بقصد تصفية الولايات واقامة نظام عسكري ... وهكذا كونت « المنطقة المستقلة» «La Zone Autonome» بالجزائر العاصمة لمقاومة جيش التحرير الوطني ولمقاومتي شخصياً في نفس الوقت ؛ وفي أيام معددودات امتلأت جدران القصبة بشمارات تندد ، على سبيل الاحتياط، بالعبادة المحتملة لشخصيتي، مؤكدة بأن ليس هناك الا «بطل واحد : الشعب ! »

وقد كنت ولا أزال على تمام الاتفاق مع هذه الصيغة ، مع هذا الاحتراز، وهو ان الحكومة الموقتة كانت تهتم قليلاً جداً بالشعب ، في نفس اللحظة بالذات ، التي كانت فيها، بوقاحة ، تحتكم اليه ضدي .

كانت تصرفاتهم المشينة في الداخل تتميز بالاجراءات التي وضعوها في خدمة اسوأ رجعية . فعلى تراب الجزائر الذي لم يكد يتحرر اوقفوا اكثر المناضلين شجاعة وشهرة : بوعلام ، جميلة بوحيرد ، وبطلاً لمعركة الجزائر العاصمة ...

وفي تونس كلما كانت الحكومة الموقتة تتصلب في موقفها ، كنت أشعر بان عداءها لي يتعاظم ، كانت حركاتي مراقبة . وباختصار كنت انتظر إغتيالي . فقررت ان انجو بنفسي . ودون تحذير ودون اشعار اي انسان ، ركبت ذات يوم طائرة مصرية خاصة كانت منطلقة من تونس وتأخر سفر الطائرة نصف ساعة ، وعلمت ، بعد ذلك ان الحكومة الموقتة تدخلت لدى الحكومة التونسية لاعتقالي . ومن حسن الحظ ، رفضت الحكومة التونسية ، بحكمة، الاقدام على ذلك.

التحقت بطرابلس وادركت ان اي قرار لم يكن ابداً اكثر صواباً من هذا القرار. لأن الحكومة الموقتة قررت الانتقال الى العمل ضد جيش التحرير الوطني ، الذي كانت قد عزلت قبل قليل قيادة اركانه: العقيد بومدين واثنين من مساعديه . واحد هذين هو الرائد سليمان[1] الذي كان في مهمة

---

(١) عيّنه بن بله فيا بعد وزيراً للسياحة ثم اقاله نظراً لسوء تصرفه بميزانيتها. وأمرّها في نفسه ، فانضم لمتآمري ١٩ جوان . وقد سمي وزيراً للمالية . وقد تمت تسميته كما لاحظت ذلك جريدة «لوموند» باختلاف شديد بين مدبري الانقلاب انفسهم .

روبير ميلر

بقسنطينة فاعتقل وكنت اخشى كثيراً على حيـــاته . ومن طرابلس نشرت فوراً بياناً يدين قرار الحكومة الموقتة التعسفي .

وفي نفس الوقت علمت أن الحكومة المؤقتة كانت تحاول تسلم جزء كبير من السلاح كان مخزوناً على ذمتنا في ليبيا . وكان واضحاً انها تريد ارسال هذه الاسلحة الى عناصر من الداخل عرف رسلها كيف يكسبونها لقضيتهـــا ، فقررت في الحال ان اذهب لمقابلة ملك ليبيا . ووصلت الى مقره في البيضاء، على مقربة من بنغازي ، في المنطقة الاكثر اخضراراً والاكثر فتنة في افريقيا. هنـــاك صلات قديمة تربطني بالملك ، ورغم ان حكومته كانت تعاديني ، فقد نجحت في اقناعه بحجز الاسلحة .

كان ذلك اخفاقاً للحكومة المؤقتة . وبعده عرفتْ اخفاقات أخرى : لم تنجح في اقناع الحكومة التونسية باعتقال العقيد بو مدين . وهذا الاخير رغم انه كان « معزولاً » فقد احتفظ على جيش التحرير بكامل سلطته . وغداة الاستفتاء اجتاز على رأس فرقه الحدود داخل الجزائر . وانا اعتقد – ولكن بدون ان استطيع تقديم البرهان – ان الحـكومة المؤقتة قامت بمساع لدى الحكومة الفرنسية لكي تبقى الحدود ، حتى بعد اعلان الاستقلال ، مغلقـة في وجه جيش التحرير الوطني .

عندما كنت في بنغازي ، علمت ان الحكومة المؤقتة ، قد اوفـــدت للاتصال بي كريم بلقساسم برفقة شخصية مصرية معروفة،علي صبري . كان اصدقاؤنا المصريون قلقين جداً من الانقسام الذي كان يتسع في صفوف جبهة التحرير الوطني ، وطلبوا مني ان اعود الى تونس . اما الحكومة المؤقتة فقد اكدت لي بالحاح ، بواسطة كريم بلقاسم ، باني سأنزل فيها ، يا للمعجزة ! على الرحب والسعة ...

وبكل وضوح كان المصريون نزهاء بقدر ما كانت الحكومة المؤقتة بغير نزاهة. فقررتُ ان اذهب بنفسي لأشرح لعبدالناصر ما كان. فأخذت الطائرة الى القاهرة وقصصت عليه كل شيء : ان الحكومة المؤقتة ، بعد ان كانت تريد اعتقالي ، غير راغبة في هذا التقارب ، الا لأنها حكمت باني وأنا بعيد اكثر خطراً عليها مني وأنا قريب . وبأنه فيما يخصني لن اقدم ابداً كفالتي لقضيتها ، لان ذلك معناه دفن احلامي بتحسين مصير الشعب ؛ وان الحكومة المؤقتة عَبْرَ كل دسائسها كانت لا تريد ولا تجري إلاوراء هدف وحيد : لَيُّ عنق الثورة .

بعد وقت قصير اعطاني ناصر الحق . فلقد عرف هو ايضاً هؤلاء «الثوريين» الذين كانت كلمة الشعب دائماً في افواههم ، وفي الواقع ، لم يكونوا يفكرون الا في إدامة بؤسه وامتيازاتهم .

وفي هذه الأثناء تم الاستفتاء واقترع على استقلال الجزائر باغلبية واسعة . ولما كان الانعطاف الحاسم قد تمّ فانه كان ينبغي الانتقال الى الاعمال، وذلك يعني الدخول الى الجزائر والتشهير بلاشرعية الحكومة الموقتة .

كان خيضر في الرباط،وهناك اتصل بعناصر صديقة في المغرب نفسه وفي جهة وهران. وكتب الي : « الوضعية بلغت مرحلة النضج . اننا بانتظارك » . وفوراً التحقت به في الرباط . ومن هناك ذهبت الى وجده ، لاني بعد عشرة اعوام من المنفى كنت اريد ان ادخل الى الجزائر مروراً بمغنيه ، مسقط رأسي .

كان الاستقبال في مغنيه وتلمسان وفيما بعد في وهران رائعاً . كانت الشمس محرقة . وكان الاستقبال قلبياً وحافلاً . وبوسع المرء ان يقول انه كان

حفلاً ضخماً . والكوادر التي انضمت الينا جاءت في سيارات لاستقبالنا ، ولما دخلنا وهران كنا وسط قـــافلة من مئات السيارات التي ظلت تطوف وتطوف في المدينة وسط الجموع الهادرة ، لمدة ساعات .

استقرّ المقام بنا اولاً في تلمسان ؛ ومنذ دخولنا شرعنا في حملة توضيح ، فدعونا كوادر الحزب وممثـــلي الولايات وشرحنا لهم ما حصل في طرابلس ، والطريقة التي غادرت بها الحكومة الموقتة المؤتمر بعد الهزيمة ، دون ان تعترف باقتراعاته. بعد هذه التوضيحات وتبادل وجهات النظر ، نشرنا لاول مرة منهاج [1] طرابلس المرحلي وتركيب المكتب السياسي .

وابتداء من هذه اللحظة اصبح موقفنا قوياً جداً . اذ اننا أصبحنا نمتلك مكتباً سياسياً منتخباً من مؤتمر الحزب بصورة نظامية ، ومنهاجاً واضحاً للاصلاح ، ورضاءً شعبياً واسعاً . ومن جهة اخرى فان جيش التحرير الذي دخل الى الجزائر عبر الحدود التونسية قد تمركز في جهة قسنطينة والاوراس، ووهران ، وفي الواقع ، في كل مكان توجد فيه ولايات وفيّة لنا .

وفي هذه الأثناء كانت ريح من الفزع تعصف بالحكومـة الموقتة التي احست بأنهـــا خسرت الجولة ، فأذعنت ، باستثناء اثنين من اعضائها هما بوضياف وكريم بلقاسم اللذين حاولا بعث حركة مقاومة مؤسسة على الجهويّة Particularisme القبائلية .

هذه الجهويّة لا نكران لها ، ولكنها ، في نهـــاية كل حساب ، ليست شيئاً آخر غير إرثٍ استعماري ، لان الادارة الفرنسية بذلت ، على مَدَى

---

(١) في الجزائر يطلق عليه عادة برنامج او ميثاق طرابلس . وكلمة المنهـــاج المرحلي على طولها افضل وهي شائعة الاستعمال في الشرق العربي . ـ المترجم ـ

الازمان ، قصاراها لتؤلب القبائل على العرب . ولم تصل الى اعطاء هـــذه الجهوية مضموناً سياسياً محدداً . والدليل هو انه عندما دقت ساعة العمل الثوري انضم القبـــائل [1] بحماس للحركة المسلحة ومدوا الثورة ببعض من افضل عناصرهم . وأخفقت محاولة بوضياف وكريم بلقاسم بسرعة ، ولكنها كانت تحتوي بالقوة على بذور خطيرة في المستقبل .

* * *

ما كاد المكتب السياسي يستقر في الجزائر العاصمة حتى اصطدم بخصم اكثر خطراً ، بما لا يقارن ، من الحكومة المؤقتة . لقد وضّحت آنفاً كيف انه ، لانعدام قيادة مركزية حقيقية ، فان الولايات التي تخلى عنها الوفد الخارجي

---

(١) القبائل Les kabiles يطلق على سكان منطقة واسعة من التراب الجزائري تسمى هي الاخرى القبائل La kabilie او « برّ القبائل » على حد التعبير الدارج ، وهي منطقة جبلية ووعرة تتكون من القبائل الكبرى او قبائل جرجره الواقعة شرقي العاصمة ، وقبائل البابور ، وقبائل أ لقـُلْ . وتتكون القبائل الكبرى من مجموعات جبال صخرية شفافة مفصولة عن البحر بمرتفعات من الصلصال الصواني . وعلى تخومها الجنوبية تقوم شامخة السلسلة الكِلْسيّة من جبال جرجره . والقبائـــل الكبرى آهلة بالسكان . وتجثم اكثر قراها على قمم الجبـــال ومشارف المرتفعات . ويتحدث سكانها اللغة البربرية . اما قبائل البابور فتتشكل من سلسلة جبال عجيبة تكسوها غابات منيعة .

اما قبائـــل القـُلْ التي تقع تماماً في الشرق الجزائري فهي عبارة عن مجموعة جبال صخرية موغلة في القدم وتغطيها غابات وادغال كثيفـــة من اشجار البلوط . وسكانها من اكثر ابناء الشعب الجزائري فقراً وبؤساً .

والروايات التاريخية بخصوص الانتماء العرقي لسكان منطقة القبائل شَتّى . فبعضها تدعي انهم او بعضاً منهم قبائل جرمانية تدفقت على افريقيا في فترات تاريخية مختلفة . وتؤكد روايات تاريخية اخرى بانهم قبائل عربية نزحت من اليمن . وقد اطلق العرب عليهم اسم البربر لكونهم ارتفعوا باصلهم الى « شام » من مَازِيغ و « بَرْ » ويطلقون على انفسهم اسم « إمْزْغَنْ » .

ـالمترجمـ

للثورة قد اعتصمت في البلاد باقطاعات كانت تحكمها حكماً مطلقاً ، وكانت تريد الاحتفاظ بها. وما ان وصل اعضاء المكتب السياسي الخمسة الى الجزائر، العاصمة حتى وجدوا انفسهم ، ان صح القول ، سجناء في عالم لا سلطان لهم عليه . ولم تكن لهم الا سلطة اسمية . اما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الولاية الرابعة ، التي حولت نفسها الى جهاز دولة وكانت تتصرف في القوة المسلحة وفي الاذاعة وفي بعض اجهزة الادراة .

اضف الى هذا ، مواجهة الخطر الذي كانت تمثله « القوة المحلية » وايضاً خطر منظمة الجيش السري . وبعد اتفاقيات افيان تضخمت صفوف الولايات بشكل فائق ، والى جنب المناضلين المخلصين ، انتدبت عناصر مُرِيبَة ولا رقابة عليها . وهذه العناصر هي التي ارتكبت في هذه الفترة المناكر والجرائم ضد الاوروبيين : زوجة القنصل السويدي أعتُدي على شرفها بحضر زوجها ورُشّتْ سيارة القنصل الايطالي بالرصاص ، وذُبح بلجيكيان في غابة بايْنَام ، وقتل معلمون فرنسيون ...

كان لا بدّ من انهاء هذه الفوضى . وقد طلبت بالحاح من الولاية الرابعة ان تجلو عن العاصمة وان تسلم لنا ادوات السلطة . فرفضتْ. ونشر المكتب السياسي بلاغاً ندّد بموقفها وردت هي ببلاغ يهاجم مواقفنا؛ واستمرت حرب البلاغات بضعة ايام . ولكنه كان من الواضح ان الوضعية كلما دامت تدهورت اكثر . وعندئذ قرر المكتب السياسي دعوة جيش التحرير ليزحف على العاصمة ويعيد الولاية الرابعة الى الصواب. ولكنها من سوء الحظ لم تتخلّ عن مواقفها فوراً . فكان الصدام وأُريق الدم .

وكنت حريصاً على ألا يُراق الدم ، على الاقل ، في القبائل ، لاني كنت

اريد عدم تمكين الخصوم فيما بعد من استعمال ورقة الجهوية التي تحدثت عنها، لخلق مصاعب لحكومة الجزائر . وقـــد احتلت بعض الفرق القبائلية ، رغم أوامرنا ، بجاية التي كانت جزءاً من الولاية الثالثة . وبرجاء مني لم يتدخـــل جيش التحرير ، وذهبت بنفسي الى القبائل لابحث معهم عن تسوية تعيدهم الى النظام من غير ان تنال من معنوياتهم .

وبينما كنت اواجه هذه المشاكل ، كنت اسكن في فيلا جولي ، ومنـذ ذلك الحين لم اغادرها . ان جدرانهـــا تذكرني بقوة بالايام الاولى من عودتي للجزائر العاصمة حيث كنت لا اكاد انام الا ثلاث ساعات كل ليلة وسط شَغَب لا يصدق . في الواقع كنتُ استعملها كمركز للقيادة – P. C. – كنا مئة رجل تقريباً في حـــالة دوام متواصل ، ننام كما نستطيع في غرف بدون اثاث، نأكل او لا نأكل حسب الاحوال .

في الصباح الذي تلا الليلة الاولى التي قضيتها في فيلا جولي ، لم اجد احداً في كل العمارة ليحضر لي فطور الصباح ، فدلني احـــدهم على اقرب مقهى . وطلبت قهوة بالحليب . كان ذلك في الصباح البـــاكر . وكنت وحيداً على المنضدة « الكونتوار » وعندما اقتربت مني صاحبة المحل ، وكانت فرنسية، قالت لي : « سيدي ، ألستم انـــتم بن بلّه ؟ » قلت لها : « بَلى ، سيدتي ، هو انا » . وبينما كنت اشرب قهوتي كنت اتحدث معها . كانت تُصغي الي ، وكانت تجيبني او بالأحرى كانت تحرك رأسها . كانت تبدو مذهولة . وكانت بوضوح غير قادرة على الملاءمة بـين الصورة المروعة التي قدمتها لها صحافتهـا واذاعتها عني ، والصورة الـــتي كانت امامها . لاني كنت واقفاً ، وحيداً وبدون سلاح ، على منضدتها . وكنت اتحدث اليها بلياقة ، وكان يبدو عليَّ اني احببت قهوتها، وككل الناس كنت أُدير ملعقتي في الكأس لتذويب السكر .

عندما كان المكتب السياسي يستعد لدخول العاصمة ، كان خميستي [1] هو الذي وجد لي فيلا جولي التي كان الموظفون الفرنسيون قد غادروها قبل قليل. لم اكن اريد في الحقيقة – ومهما كان الثمن – ان اسكن في قصر الصيف[2] الذي كان يبدو لي ان بذخه لا يليق بروح الثورة . اذكر عرضاً ، ان خميستي المسكين ، كان مدير ديوان فارس رئيس المجلس التنفيذي المؤقت ، وبواسطته كنا نحصل ، تقريباً ساعة فساعة ، على كل ما كان يجري في قلب هذه المنظمة التي كانت لنا بعض الاسباب للحذر منها .

ولم تكن هزيمة الولاية الرابعة واذعانها كافيين مع ذلك لقرع اجراس نهاية حكم الولايات Willayisme .

واذا كانت المدن الكبيرة قد اصبحت اكثر أمناً ، فان البوادي كانت تجوبها عناصر لا رقابة عليها مسلحة بالرشاشات . وتحت ستار الوطنية كانت ترتكب مناكر شنيعة . ولما أشْعِرْتُ اخذت اتدخل بدون توقف : تدخلت في الدار [3] البيضاء لتخليص معمرين فرنسيين كانت تحاصرهم عصابة . وفي مارانجو تدخلت لحماية مزرعة كان بعض الاشخاص يريدون نهبها . كنت ارسل بفصائل من جيش التحرير الوطني – البوليس الوحيد الذي كان في تصرفنا – ، ولكن هذه العناصر التي لا رقابة عليها ، كانت تعتقد أن كل شيء مستباح لها ، ولم تخش ، أحياناً ، من استقبال رجالنا بطلقات البنادق . وحصلت هنا وهناك اشتباكات عنيفة ، وكان لا بد لنا من

---

(١) محمد خميستي الذي اصبح فيما بعد اول وزير للخارجية في اول حكومة للجزائر المستقلة، وكان اصغر وزير خارجية في العالم كله . وبعد شهور اغتاله معتوه .

(٢) سماه بن بلة فيما بعد قصر الشعب ، وخصصه لاستضافة رؤساء الدول - المترجم -

(٣) خاصة بها مطار الجزائر .

بضعة شهور أخرى لتصفية عقابيل حكم الولايات .

بيد ان الدولة الجزائرية التي لم تكن ، غـــداة الاستقلال ، إلا وهماً – مكتباً سياسياً يتركب من خمسة رجال – بدأت ، شيئاً فشيئاً ، ووسط مصاعب لا حصر لها ، تصبح واقعاً . في ١٥ سبتمبر – ايلول – اجريت الانتخابات العامة على كامـــل التراب الجزائري . وفي ٢٧ سبتمبر شكلت حكومتي . وفي ٣ اكتوبر – تشرين الاول – سافرت لمنظمة الامم المتحدة .

كانت بالنسبة لنا لحظة مؤثرة جـــداً عندما رُفع العلم الجزائري وسط أعلام دول منظمة الامم المتحدة ، وانطلق يخفق معها في عنان السماء . وقد تلطـّف سيكوتوري فتجشم السفر الطويل من افريقيا الى امريكا ليكون حاضراً معنا في الاحتفال برفع العلم الجزائري ، وتأثرت جـــداً بحضوره الى جنبي .

وكان يُنتظر ان القي من منبر الامم المتحدة خطاباً صاعقاً . فكان خطابي حازم المضمون ومعتدل الصياغة . ولا يتضمن اي هجوم على فرنسا التي كنا منذ الآن نريد ان نعيش معها في تفاهم ، كما تحملنا على ذلك طبيعة الاشياء نفسها .

كان لا بد من اقامة استقبال على شرف قبولنا في الأمم المتحدة ، وبهذه المناسبة، اذكر ان بعض اصدقائنا نصحوني باحضار ماء الحياة Gin والويسكي وضروب أخرى من الخمور لمدعوينا ... وبرروا لي ذلـــك بأن « هذا سنـّة جارية هنا . حتى البلدان العربية تسير عليها » . فقلت لهم : « حتى ولو كان ذلك كذلك فانا لن افعله . ان الجزائر بلد مسلم . وهي تستقبل الناس بعاداتها هي، لا بعادات الآخرين ».وردّوا عليّ بحسرة:« سيفشل الاستقبال،

لان الامريكيين لن يحضروا !». قلت: « اذا كانوا اصدقاءنا حقاًفسيحضرون».

وفي الواقع جاءوا ، بل جاءوا افواجاً . وطوال ساعتين ظلوا يشربون بشجاعة عصير البرتقال .

وخلال هذا الوقت كانت الصحافة الامركية تشن الحرب ضدي . وكان لهيجانها سببان : موقفي من قضية فلسطين وموقفي ازاء كوبا .

إن كون اسرائيل رأس جسر للامبريالية الغربية في الشرق الادنى – هذا أمرٌ لا أشك فيه . وذلك ما قلته ولا أزال . وهـــذا سبب كاف ليتهمني فوراً لفيف من الصحافيين ، تلميحاً ، باني عدو للسامية [1] ، وبان يضمروا لي حقداً ازرق كانوا لا يريدون كشف مصدره الحقيقي . اني ادفع تهمـــة عداء السامية باستفظاع : انها مجرد وقيمـــة Calomnie . لم اكـــن ، ولست ، ولن اكون عنصرياً . إن العنصرية موجودة عند الذين يتظاهرون بالاعتقاد باني عـــدو للجنس السامي ، لاني أكتشف الدور الاجرامي الذي تلعبه اسرائيل في قلب العالم العربي .

---

(١) تستخدم الدعاية الاسرائيلية والسائرون في فلكها عداوة السامية L'antisémitisme اولاً بمعنى عداوة الجنس اليهودي ،بيـــنما هي تعني عداوة كل السُلالات التي اصطلح تاريخياً على تلقيبها بالسامية نسبة الى سام بن نوح . والعرب كما هو معروف ُسلالة ساميـــة ؛ وتستعملها ثانياً سلاحاً للحرب النفسية وكسب الرأي العام العالمي الذي ينفر بعمق من العنصرية وبالاخص عداء السامية ، الذي كان منذ قرون ـ وبشكل او بآخر ـ لا يزال سائداً في أوروبا التي كانت تعتبر اليهود تجسيداً للشر على الارض . ولعل آخر تجليات هذه الظاهرة العنصرية الاوروبية المنْبتِ المجازر الرهيبة التي نظمتها المانيا النازية لليهود وقتلت منهم مليون طفل . وما زلت اذكر انه عندما ذكر صحفي اوروبي الرئيس بن بله بمذابح اليهود في المانيا رد عليه بن بله: « نحن العرب ُندين هذه المذابح . ولكن الامة العربية غير مستعدة لدفع حسابات هتلر » . وان تقتيل ملايين اليهود من النازيين ، الذين كان بينهم عملاء يهود ، لا ُيكفـّر عنه بذبح الاطفال العرب في دير ياسين ، وطرد شعب كامل من وطنه . المترجم

كان في فرنسا اثناء حرب الجزائر عدد من الصحفيين التقدميين الذين كانوا يدورون حول بلاط المعجزات : الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية . وفي لحظة الاستقلال تبنّوا بشكل اعمى قضيتها ضدي . وبما ان هؤلاء الصحفيين كانوا غالباً من بني اسرائيل ، فان تحاملهم عليّ كان يتغذى في دخيلة انفسهم من مناصرتهم للصهيونية التي لم يكونوا يبوحون بها . قلت هذا لبعض منهم عندما زاروني بالجزائر : بمهاجمتكم لي واستيائكم مني ، انتم التقدميين والمعادين للعنصرية ، ضـــد اي شيء تتخذون هذا الموقف ؟ ضد حكومة معادية للعنصرية تحاول ان تبني الاشتراكية . اننا نريد حقاً وصدقاً الثورة . امـا الحكومة الموقتة فانها لا تريدها . ان يكون المرء في نظر الحكومة الموقتـــة « ديموقراطياً » و « اشتراكياً » و « تقدمياً » فذلك لا يمشي أبعد من شرب كأس خمر برفقـة الاصدقاء الاوروبيين بتجنّيكم علينا انما تتجنون على القوة التقدمية الوحيدة التي تجاهد لبناء هذه البلاد . وانكم ايضاً تضرون بقضية اليهود في العـــالم ، لأنكم تخلطونها بقضية - مريبة ومحل جدال - هي قضية الصهيونية .

«وأخيراً فلا ينبغي ان يقال لي بأن دور اسرائيل تقدمي في افريقيا... لأنه بالعكس من ذلك تماماً : ذلك انه يوجد بين اسرائيل والامبريالية الغربية نوع من التفاهم الضمني لكي تستولي اسرائيل او تحاول ان تستولي على المواقع التي أكره الغربيون على تركها في افريقيا . ولهذا نرى في الساعة الراهنة ان ٧٥ بالمئة من التجارة الاسرائيلية يقع مع افريقيـــا الجنوبية ... وهذا ما يتركُكم أقل أحلامـــاً عندما تفكرون بالسياسة العنصرية البشعة لهذه الدولة ... »

ولنعد الآن للولايات المتحدة الاميركية وهيجان صحافتها ضدي. قبل ان اسافر

الأمم المتحدة تلقيت دعوة من الرئيس كينيدي . وقبله دعاني فيديل . وقد تناقشنا في مجلس الوزراء حول المشاكل التي كانت تطرحها هذه الدعوة المزدوجة . وبالتأمل ظهر لنا انه من المستحيل – سياسياً وعاطفياً ان نزور واشنطن دون ان نزور كوبا . وحتى قبل ان نسافر من الجزائر قلنا ذلك للأميركان كان رد فعلهم عنيفاً . لم يقولوا ذلك ولكنه كان من السهل ان نقرأ بين سطور جوابهم ما كانوا يريدون قوله : « لما كنتم ذاهبين الى كوبا فلا جدوى إذن من القدوم لرؤيتنا » . وبالطبع كان رد الفعل هذا ملفوفاً في لياقة اللغة الديبلوماسية . ولكن عندما علمت الصحافة الاميركية انني بعد أن استقبلني كينيدي اتأهب لزيارة كاسترو ، عندئذ أخذتها نوبة هستيرية . وفي جميع قاعات التحرير بالولايات المتحدة الاميركية أصبحت فوراً شيطاناً .

وظل الجو حتى في الدوائر الرسمية متوتراً . عندما أقام كينيدي حفلة على شرف الجزائر أوشكت الامور ان تسوء كثيراً . لأني في الواقع علمت ان ممثل فيتنام الجنوبية الذي كان عميد السلك الديبلوماسي في أمريكا سيقدم لي أعضاء السلك الديبلوماسي . وفوراً عارضت بشدة ذلك وقلت للاميركيين : « اني لا اعترف بحكومة فيتنام الجنوبية ولا أريد أن أصافح هذا السيد كما لا أريد منه ان يقــدم لي أياً كان » . كانت القضية حامية . ولكن الاميركان استسلموا . وأثناء الحفلة عندما تقدم مني ممثل فيتنام الجنوبية أدرت رأسي قصداً . وبدون شك أشعره مستخدموه فمرّ دون ان يتوقف . لا فقط لم يتمكن من أن يقدم لي زملاءه رجال السلك الديبلوماسي بل لم يجرؤ حتى ان يقدم لي نفسه .

كنت أعطف على كينيدي حتى قبل لقيّاه ، لاني لم أكن اجهل انه في سنة ١٩٥٧ القى خطاباً نادى فيه باستقلال الجزائر . وعندما تغديت معه لم

يخيبني استقباله الاول . لقد ترك لدي الانطباع بانه رجل نزيــه وشجاع ولكنه بدا لي خاضعاً لضغوط لا حصر لها ، واسيراً بشكل خارق للعادة ، للنظام السائد في بلده . عندما قلت له بان الديبلوماسية الامريكية تساند نظم الحكم المتعفنة في العالم وتهاجم زعماء مخلصين مثل كاسترو وناصر ، يجب ان اقول بان جوابه لم يكن يبدو لي مُقنعاً .

فيما يخص كوبا قال لي بانه يستطيع ان يقبل بمزيد من الصبر ان يوجد في الجزيرة العُظمى شيوعية على النمطاليوغسلافي او على النمط البولوني، ولكنه لا يقبل شيوعية « تَوسُّعيَّة » تشيع الثورة في كلامريكا الجنوبية . وقال لي ايضاً انه لا يقبل بوجود قاعدة للصواريخفيالجزيرة؛ ولفتُ نظره بهذا الصَّدَد الىأنّ قاعدة عسكرية للولايات الامريكية المتحدة توجد على ارض كوبا ...

كانت مواجهتنا عنيفة . وكانت من كلينا جــد صريحة . وفي لحظة مّا أتذكر اني قلت له باحْتداد :

«لماذا تضطهدون كاسترو ؟ ولماذا هذا الحصار اللاإنساني الذي تضربونـه على كوبا ؟

اني انذركم اذا ما تصرفتم معنافيالمستقبل مثلما تتصرفون معه فستحصلون على كوبا ثانية في افريقيا ... »

واخيراً فارقت كيندي دون اوهـام بخصوص سياسة وزارة الخارجية الامركية وبخصوص المساعدة المالية التي وعدنا بها والتيلم تلبث في الواقع ان سقطت في مَهَاوي النسيان ، ولكن مع عواطف تقدير وعطف شخصي عليه . لانه كان العنصر المعتدل تجاه هيجان قوى العدوان والحرب في بلده . وشعرت بان موته كان خسارة كبيرة للولايات المتحدة وللعالم .

وأتذكر اني كنت جالساً في غرفتي بفيلا جولي عندما حملت اليّ برقية تفيد ان اعتداء قد دُبِّر ضدّه في دالاس . ولم اكد افرغ من قراءتها حتى وصلتني برقية ثانية تعلن موته . فقمت متأثراً وبدون ان يكون لي الوقت لاستدعاء مجلس الوزراء تَلْفَنْتُ الى الاذاعة وامليت تصريحاً ندّدتُ فيه بالمؤامرة العنصرية والبوليسية التي كان كيندي ضحيتها ، والتي سيحاولون بدون شك نسبتها الى فيديل كاسترو ! ..

وبعد ايام اطلقت اسم الرئيس كيندي على ساحة الابيار الكبيرة .

عندما آن الآوان لمغادرة الولايات المتحدة،قبل الامريكيون بصعوبة بالغة ان تأتي طائرة كوبية لنقلي. لقد كان موقفهم عدائياً لدرجة اني كنت أخشى في لحظة ما ، ان تقدم وكالة المخابرات الامركية ، بدون استشارة الرئيس ، على تخريب الطائرة على أرض المطار، أو ترسل بخدامها من الطيارين المعادين لكاسترو للاعتداء عليها في الجو . وما ان وضعت قدمي في الطائرةوارتمى الكوبيون على رقبتي عناقاً حتى نسيت بسرعة هذه المخاوف .

ان ما كنت افتقد في الولايات المتحدة الامركية ، اكثر من أي شيء آخر ، هو حرارة العلاقات الانسانية.ومنذ اللحظات الاولى كان الانطباع الذي اعطتني اياه العمارات الشاهقة والمدن العمودية هو ان امريكا جدار . نعم امريكا جدار – جدار ينتصب شامخاً بين الناس – ان الذي لا تعرفه هذه البلاد هو التّوَاصل – La communication بين الانسان والانسان ولهذا كانت مدنها الكبرى تَعجُّ بالسكان ولكنها في ذات الوقت قَفْرٌ .

لم يسبق لي ان مَاشَيْتُ من الناس بقدر ما ماشيت في الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن لم يسبق لي قط أن شعرت بأني وحيد

مثلما شعرت بذلك فيها . ان في قلب هـذه الجموع البشرية المتدفقة فراغاً لا إنسانياً : غياب التأثر – L'affetivité – ان التأثر يشكـل في الوجدان الجزائري العنصر الأساسي للحياة، والمادة التي بدونها نفقد القدرة على التنفس.

وبسعادة لا تقدر غرقنا،ابتداء من الطائرة ، في الصداقة الكوبية ما كدنا نأخذ مقاعدنا في الطائرة حتى قدموا الينا قهوة – Cafecito – ممتازة ، جد قوية ، جد حلوة ، وتفوح منها العطور .. واراحونا من هذا المشروب التافه الذي يسمى قهوة في الولايات المتحدة الامريكية . وفوراً بدأنا نتجـاذب اطراف الحديث ، ولكن لا استطيـع ان اقول بأية لغة ، هم لا يعرفون العربية اطلاقاً وانا لا اعرف من الاسبانية الا قليلاً .. ولكن الصداقة كانت معوّضاً عن كل شيء .

الجزائريون يعلنون دائماً ، بمـلء الحق ، انهم عرب . وفي أي قطر من أقطار الأمة العربية لا يشعرون ابداً انهم غرباء . سواء كنا في القاهرة أو في دمشق أو في بغداد ، رغم الفوارق العظيمة ، فاننا نجد دائماً بعض العناصر – مظهر الشارع ، كلمة ، اشارة ، او عادة – تذكرنا فجأة بأننا في الجزائر . ورغم انه ليس لنا مع كوبا لا رابطة الجنس المشترك ، ولا العادات ولا اللغة ولا حتى ألطبْع Le caractère – لأن الكوبيين اكثر تدفقاً بالحيوية منا – فان التواصل بين الجزائريين والكوبيين يتجلى بعمق وعلى الفور .

***

كان فيديل ينتظرنا في مطار لاهافانا مع وزرائه وكل الحكومة التي لم يتخلف منها واحـد عن ارض المطار ، كانوا جميعاً متأثرين ، أخَوِيين ، ومتلهفين لرؤيتنا . وقد أعددت بعناية خطابي بالاسبانية ، ولكن بالتـأثر

الذي استولى عليّ ، ارتكبت اخطاء كثيرة وكان نطقي بالغ السوء . ولكن ذلك لم يكن يهم مستمعيّ في قليل او كثير، وكانوا يصفقون لي مع كل جملة. وتحت شمس الخريف الاستوائي كانت الجماهـير الكوبية المتحمسة ترقص نحو السينما . انها لم تكن الا وَجْداً وسَوْرة وحيوية .

ما ان انهيت خطابي حتى تقدم نحوي فيديل وعانقني عناقاً عميقاً وطويلاً Fuerte Abrazo . وقد دَوّى تصفيق بدون انقطاع وعندئذ رأيت اطفالاً جزائريين من ابنـاء الشهداء [1] يتقدمون نَحْوي ، كانوا ضيوفاً على فيديل منذ عامين . لقد تأثرت حتى العظم برؤيتهم هناك . وقيل لي بانهم يعملون كثيراً ، وبانهم يتكلمون الاسبانية بدقة ، وبانهم كانوا الفائزين الختاميين ،في صفهم ، ببطولة كرة القدم الجامعيـة في كوبا ... ولكنهم خسروا المنافسة النهائية La Finale بحرمانهم ، عقابـاً ، من خوض المنافسة : لقد تصرفوا تصرفاً جزائرياً ! فلكموا خصومهم ...

لم نقم في كوبا إلا ستاً وثلاثين ساعة . ولكن اي عيد Fiesta كان خلال هذه الست والثلاثين ساعة ! لست ادري من الذي كان قد اعد برنامج الزيارة، ولكن فيديل لم يقرأ لهذا البرنامج أي حساب ... لقد دُسْنا على كل المراسيم وتحدثنا، تحدثنا...اثنان من اكثر ثوريي العالم شباباً يلتقيان ويواجهان مشاكلهما ويشيّدان معاً المستقبل .

غداة وصولنا أرانا فيديل شاطىء Yaradero ، ومزرعـة من مزارع الشعب وعقيقاً [2] شجّره بنفسه . لقد أثار إعجـابي ما لمسته عند الزعيم

---

(١) كانوا ٣٠ طفلاً من جهة وهران استقبلهم فيديل كاسترو بنفسه ١٩٦٠ . وسافروا الى كوبا عن طريق المغرب يرافقهم معلمهم بن اسماعيل .

(٢) العقيق هو نوع من الاودية الصغيرة .

روبير ميرل

- المترجم -

الكوبي من ان اهتماماته الجدية لا تعني استبعاد حسّ النُّكْتة !

وتشريفاً لنا أرفق سيارتنا بحرس الدراجات النارية . كانوا يرتدون بدلات قرمزية على شاكلة الفرسان ، وكان عليهم ان يتقدمونا ، ولكن في الواقع كنا نقف دائماً في كل ملتقى طرق لانتظـــارهم ، وفي كل مرة كانوا يخطئون الطريق . وأخيراً نزل فيديل من السيارة منفعلاً . كنت انتظر منه أن يُعَنّفهم ، وفعلاً عنّفهم على نحو لم يكن اطلاقـاً في الحُسْبان . إذ قال لهم : « قولوا أيها الرفاق،هل سنذهب لرؤية هذه المزرعة ام لا نذهب؟ هل أعرف هذه المزرعة ام لا ؟ بل وهل توجد أساساً هذه المزرعـــة ؟ لقد وصلتم الى جعلي اعتقد بأننا ربما لسنا في كوبا ؟.. » وهنا انطلق الناس كلهم يضحكون بما فيهم حرس الدراجات وعاد فيديل للسيارة .

كان فيديل قلقاً على قوتنا الدفاعية . ولقد قال لي :

– أعرف ان عندكم جيشاً ممتازاً . ولكن هل عندكم دبابات ؟

– حتى الآن ، لا ...

وظل يتذكر هذه الإجابة لعـــدة شهور فيما بعد ، عندما قامت حرب الحدود بيننا وبين المغرب .

وطلبنا منه ان يرسل لنا باخرة من السكر ، فأرسلها لنا، وعندما شرع عمالنا بالميناء يفرغون شحنتها وجدوا الدبابات مخبوءة بين اكياس السكر ..

تحدثت معه في مشاكلنا الزراعية . فقلت له بأننا نحن المسلمين لا نشرب الخمر، وربما وجب علينا ان نستبدل الكروم بزراعة اخرى . فقال لي : كلا، كلا ، لا تفعلوا ذلك . انه الخطأ الذي ارتكبناه نحن ايضاً في البداية ، مـع قصب السكر . الكروم هي افضل ما زرع المستعمرون في بلادكم . فاحتفظوا

بها . بل واغرسوا منها أخرى . خمركم به درجة عالية من الكحول، ويجـد دائماً أسواقاً . »

لم أعرف اقصر من هذه الست والثلاثين ساعة . لقد تركنا فيديل بتأثر خارق للعادة . ودعوناه لزيارتنا في الجزائر . ولكن هل سيأتي ؟ ان الحرب معلقة في شفرة سيف مسلول بالليل والنهار فوق كوبا .

عندما حلقت طائرتي للنزول فوق مطار الجزائر ، انطلق قلبي بالخفقـان لمنظر المدينة العظيمة الممتدة كهـلال حول خليجها . هذا البلد المشرق الرائع بعد سنواته السبع من الحـرب ، ومليون من قتـــلاه ، وجروحه النازفة ، ونواقصه ، وفقر جماهيره ، يجب ان نعيد بناء، من بابه الى محرابه على قواعد جديدة ... فهل سيمكنني القدر من الوقت لذلك ؟



الفصل السابع

المشاكل الأولى

كانت الوضعية ، بعد سبعة اعوام من الحرب ، شنيعة : فالبلاد مُسْتَنزفه الدم ، مَهْرُوسة المفاصل : فمنظمة الجيش السري هدّمت مدارسنا بالقنابل، وحرقت مكتبة الجامعة الجزائرية ، وأبادت اطناناً من الملفات الادارية . وقد ترك آلاف من المدرسين مراكزهم . وما زال الجيش الفرنسي بفضل اتفاقيات افيان يحتل البلاد ، وفي اشياء كثيرة ما زلنا خاضعين للحكومة الفرنسية . ومن جهة اخرى فان الهجرة الجماعية لتسعة اعشار السكان الفرنسيين بالجزائر ، صيف ١٩٦٢ ، قد جَرّ انهيار الابنية الاقتصادية للبلاد. وعلى عشرة ملايين [١] من الجزائريين يوجد مليونان عاطلان عن الشغل ، منهم اكثر من ربع مليون في مدينة الجزائر وحدها . واصبحت العَطَالة في المدن اكثر هَوْلاً بتدفق القرويين الجياع . لقد لاحظت من زمان هذه الظاهرة في مدينة مغنية بعد الحرب العالمية الثانية . ولكنها اليوم تفوق في الاتساع وفي الدَّيْمُومَة لُجُوءَ الفلاحين الى المدن سنة ١٩٤٥ .

---

(١) حسب من احصاء (سبتمبر ١٩٦٥) لسكان الجزائر بعد الاستقلال تبين انهم ١٢ مليوناً الا قليلا . - المترجم -

عمّ كان الفلاح يبحث في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة خلال صيف ١٩٦٢ ؟ عن الإغاثة الغذائية ، وعن المدرسة لابنائه ، وعن المساعدة الطبية له ولعائلتـه ، وايضاً عن مسكن رخيص ، لانه لم يكن يجهل الاقبال الذي لا يُرد من جماهير المدن البائسة على المنازل التي هجرها الفرنسيون . هذا الجيش من عاطلي المدن طرح علينا مشكلة شبه عصية على الحل ، لاننا لا نملك ولا ننتظر ان نملك قبل زمن طويل صناعة تسمح لنا بحلها . كان علينا اذن ان نقنعهم بالعودة الى القرى وكان لا بد لكي نعطي سواعدهم شغلاً ونؤمن للبلاد مصدراً للتموين ان نحيي قبل كل شيء القطاع الزراعي كله . ولهـذا كانت « حملة الحرث » [١] اول معركة خضناها .

وانطلقت الحملة في ١٥ سبتمبر ، وبعد شهر ونصف كللت بالفشل . . كانت

---

(١) بعد سبع سنوات من الحرب والتهجير واحراق المحاصيل وتدمير المواشي تحولت اغلبية الاراضي الجزائرية الى بور ، وبرغم يقظة العمال الزراعيين ومقـاومتهم المثالية استطاع بعض المستعمرين الفرنسيين ان يدمروا ادوات الحراثة قبل ترك مزارعهم ؛ يضاف الى كل هذه المصاعب الموضوعية الموروثة عن حرب «الارض المحترقة» التدمير البعيد المدى الذي احدثته منظمة الجيش السري بعد ايقاف اطلاق النار وازمة الصيف الشهيرة (١٩٦٢) التي اخرت انتصاب اول سلطة وطنية ثورية بعد الاستقلال الى اواخر سبتمبر ١٩٦٢ . كانت الحكومة الوطنية ترى بوضوح ان البلاد مهددة بشتاء جائع وصعب ، اذ ان الفلاحين الجزائريين كانوا ، على حد تعبير ، عمار اوزقان ، وزير الاصلاح الزراعي عهدئذ ، يصارعون البغال على أكل الشعير فما العمل للتخفيف من حدة هذا الوضع الاليم وتأمين خبز شتاء السنة المقبلة ؟ كان بعض المستشارين الاجانب لايرون سبيلاً للخروج من المأزق الا باستعطـاف المستعمرين الاوربيين للعودة الى احتلال مزارعهم من جديد . ورفض بن بله الاستماع لهذه « النصائح » واهتدى الى حل العمل الشعـبي الجماعي على مستوى الزراعة ايضاً . فأعلنت حملة الحرث وشكلت كتائب للحرث كانت تعمل على الارض ليلاً ونهاراً وما جاء آخر الموسم الا وملايين الهكتارات قـد زرعت . وفي موسم الحصاد التـالي استعمل نفس التيكنيك في حملة الحصاد . — المترجم —

الوضعية رهيبة . لقد ارتكبنا خطأ خطيراً . وعدتنا البـــلدان الاشتراكية بالجرارات ، واعلنت الاذاعة والصحف وصولها . وفي اذهان الفلاحين كان هذا يعني اننا سنذهب اليهم ونحرث لهم ارضهم . وبالنتيجة فان احداً لم يعد يفعل شيئاً ، وعلى صعيد الادارة المحلية لم تكن هناك أقل مبادرة . كان كل الناس ينتظرون الجرارات .

وكان ان قررت اللجوء الى وسائل جذريـــة . فتخطيت الولاة ونواب الولاة ، وشيوخ المدن ، واستدعيت موظفي الجمعيات الفلاحية الاحتياطية S. A. P. ؛ وشرحت لهم بان عليهم ان يشمروا عن سواعدالجد وان يشرعوا في الحراثة بالوسائل المتوفرة . وقُبِلَ المبدأ ولكن آلافاً من المشاكل الثانوية طرحت نفسها . وظللت من يوم ليوم ، وخلال شهرين ، أحلهـــا بنفسي . عندما أُشعَرُ بعطب «Panne» في مكان ما ، فاني اسرع الى عين المكان ، واقوم بالتحقيق ، عند اللزوم بدون المرور بوزير الداخلية . كنت اقتصّ من الموظف العاجز ، وأُسخر فوراً حبوب البذار والمحاريث والجرارات.. كانت هذه الوسائل تنافي التقاليد البيروقراطية .. وانطلق الكثيرون يشجبونهـــا ويتصايحون انها « الديكتاتوريـــة » . ولكن أيُّ الحلين كان افضل : احترام الشكليات وخسران حملة الحرث ، ام تجاوز الشكليات وربح المعركة ؟

لاننا في نهاية المطاف ربحناها . وفي الإبان حرثت ثم بذرت كل الارض . وتهاطلت الامطار بسخاء . وكان موسم ١٩٦٣ كريماً ورائعاً .

* * *

في هذا الخريف اتخذت حكومتي قراراً أسال كثيراً من الحبر : قرار منع الحزب الشيوعي الجزائري .

لقد ُقدّم هذا الاجراء للجماهير على نحو بالغ السوء . ونظراً الى انه كان خالياً من التوضيحات التي كان لا بد منها فقد صُنّفنا في المعسكر المعادي للشيوعية [1] . والحق ان هذا القرار لا ينكشف مدلوله الحقيقي الا بوضعه في إطاره التاريخي :

لقد ناضلنا طويلاً وضحينا كثيراً قبل وبعد ١ نوفمبر للابقاء على وحدة جبهة التحرير الوطني - لاننا كنا نشعر بان ذلك هو الشرط الجوهري لقوتها ونجاحها - وعليّ ان اقول اننا عندما وصلنا الى السلطة لم يدر بخاطرنا ان نترك الاحزاب السياسية تتكاثر وتنتصب في الجزائر. ولذلك غداة الاستقلال استبعدنا هذا الاختيار في منهاج طرابلس المرحلي . لانه بدا لنا ك « بضاعة فاخرة» لا يستطيع بلد متخلف ان يسمح بها لنفسه.

إن البلدان المتخلفة مُستهدفة للاخطار بشكل فائق . وبالنسبة لجل هذه البلدان لا توجد الا مادة اولية زراعية هي التي تشكل مصدر العيش الوحيد: السكر لكوبا ، والقهوة لبعض البلدان الافريقية ، والكروم للجزائر والقِنب للبكستان والقطن لمصر . واسعار هذه المواد الاولية تحدّد لا في عواصم البلدان التي تنتجها بل في العواصم الغربية التي تشتريها . وهكذا فالبلدان المتخلفة تابعة دائماً ، ومستغَلة دائماً ، ومدينة دائماً ، والبون بين مستوى حياتها ومستوى حياة البلدان الصناعية لا يتقارب مع الزمن ، بل بالعكس يتفاقم . لا شيء افضل من ان ترتضي هذه الامم الكبيرة لنفسها وجود اثنين او ثلاثة او عدد من الاحزاب السياسية، ولا شيء اكثر رِياء من هذه المظاهر

---

(١) لم يفتأ الرئيس بن بلّه منذ اختياره على رأس السلطة الثورية يردد بدون ملل : « أن عداء الشيوعية سياسة خطرة » . لانها لا تخدم الا اهداف المستعمرين والمعسكر الرجعي .
- المترجم -

الجميلة ! بالأخص ان « اشتراكيي » ومحافظي البلدان الغربية عندما يتسلمون السلطة يخدمون جميعاً بـبِـذلـةٍ متساوية مصالح الامبريالية .. امــا نحن ، فجماهيرنا البائسة والامية التي لاتتجاوز دخلها في أي مكان عشرين الف فرنك قديمة في العـام [1] ، فلسنا اقوياء بالقدر الكافي حتى نسمح لانفسنا بهــذه الألاعيب الأريبـة . ان تعدد الاحزاب عندنا لا يمكن ان يقــود الا للبلبلة وتشتيب الجهود ، والفوضى ، او الى ما هو اسوأ من ذلك : التدخل المتستر من الاجنبي في سباق الاقتراع . لكي نعمل ، ونعمل بسرعة ، ولكي نتدارك تخلفنا ، ولكي نصلح جذرياً الابنية الاجتماعية والاقتصادية ، فنحن نحتاج الى حزب وحيد يجمع ويدرب كل قوى البلاد .

لقد أسهم الحزب الشيوعي الجزائري في حرب التحرير الوطـني . ولكن كيف كانت هذه المشاركة ؟ لا بوصفه حزباً بل بتركه مناضليه ينخرطون في جبهة التحرير الوطني . فهل نسمح لهؤلاء المناضلين بان يتخلوا عنا بعـد عودة السلام ويعيدوا تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري ؟ وفي هــذه الحالة لماذا لا نأذن للسيد فرحات عباس باحياء الاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري ؟ ان الانسان ليشعر ويرى ويحدس بالاخطار التي سنتعرض لها حينئذ .

كانت ردود الفعل العالمية متنوعة ازاء هذا الاجراء : ابتهج كثيرون قبل الاوان بقرارنا ، واستاء منه آخرون بغير سبب . ولفترة معينة حصل شيء من البرود في علاقاتنا بالبلدان الاشتراكية باستثناء فيديل كاسترو الذي كتبتُ موضحاً له فوراً أبعاد القرار . وفي الشهر التــالي واصلت عملية التوضيح ؛ فشرحت بعمق واتساع للشيوعيين الايطاليين ، الذين وجدتهم خـلال مقابلتي

---

(١) حوالي عشرين جنيهاً مصرياً . — المترجم —

شديدي الانفتاح والادراك ، وجهة نظري . وبعد ذلك مباشرة اكدت عزم حكومتي الراسخ على عـدم الوقوع في فخ عداء الشيوعية المُذَهّب . وبعد هذا بقليـل صرحت على رؤوس الاشهاد بانه لو لم يكن الاتحـــاد السوفياتي موجوداً فانه كان لا بد لنــا من خلقه ، على الاقل لوضع رادع امام التوسع المفترس من طرف الامبريالية . .

يجب ان اضيف باني على الصعيد الانساني أشعر باحترام عميق للمناضلين الشيوعيين . انهم يثيرون اعجابي لانهم تجردوا من كل ارتبـــاط بعالم المصالح الشخصية الصغير والحقير . ولانه لا المــال ، ولا النجاح ، ولا المناصب ، لا شيء من كل هذا يُحسب له حساب عندهم . ولانهم في كل لحظة مستعدون للتضحية بكل شيء بمـــا في ذلك حريتهم وحياتهـم نفسها في سبيل مثلهم السياسي الاعلى . وبهذا الخصوص فاني اشعر باني جد قريب منهم .

واعطيهم الحق على صعيد التحليل الاقتصادي . ولكن افترق معهم فقط على الصعيد الفلسفي . لانهم غير مؤمنين وانا مؤمن بالله . انني اعلم جيــداً اني لا استطيع ان ابرهن عن معتقداتي الدينية وبأنها باقيــة فيّ على الصعيد الذي لا سبيل للتأكد منه . ولكنها على اية حال اعتقادات موجودة فيّ ، وبدون تعصب وبدون انغلاق ، اتعلق بها كثيراً . ولا ارى لماذا لا يستطيع المؤمن – مسلماً كان او مسيحياً – ان يتفق على صعيد المنجزات الارضية مع المناضل الشيوعي . واقصد المؤمن الحقيقي ، لا واحداً من هؤلاء الناس الماهرين الذين يستخدمون « ايمانهم » للدفاع عن مفاهيم اجتماعية رجعية وتكريسها . .

* * *

من بين الشؤون التي اهتممنا بها اكثر من سواها ولا نزال.أضع التعليم في

المقام الاول . لقد طرحت علينا السنة المدرسية في اكتوبر ١٩٦٢ مشاكل رهيبة . ولكنها اخيراً حلت ، على نطاق واسع ، بفضل – وهذا ما يجب ان يقال – معلمي واساتذة التعاون الثقافي الذين استجابوا في معظمهم لنداء الحكومة الفرنسية . ولكن من جهتنا كنا واعين باهمية القضية – التي هي الاعداد السريع لكوادر كانت بلادنا في اشد الحاجة اليها – وكنا مصممين على بذل مجهود مرموق فيها. ولعل الرأي العام هنا او فيما وراء البحرالابيض المتوسط لايعلم بالقدر الكافي أن الجزائر هي احد البلدان النادرة التي كرست ربع ميزانيتها للتعليم .

لكي نحيي على رؤوس الاشهاد مشاهير الاساتذة الفرنسيين الذين يدرسون عندنا ، ولكي نشير الى الاهمية القصوى التي ننيطها بالتعليم ، قررنا ان نقيم احتفالاً مشهوداً للسنة الجامعيـــة بالجامعة الجزائرية . وقررت ان احضره بنفسي ، وفيه القيت خطاباً عرضت فيه بعض الافكار التي اعتز بهـا . وفي الواقع كانت فرصة سانحة لنؤكد، في نفس الوقت، احترامنا للثقافة الفرنسية وايضاً ضرورة البحث في اعماقنا للعثور من جديد على البعد الاخلاقي والثقافي الذي ضاع منا بضياع لغة اجدادنا الرائعة [١] .

---

(١) بدون مبالغة اعتبر هـــذا الخطاب - نوفمبر ١٩٦٢ - « غرة » نوفمبر اخرى لثورة تحرير اللسان الجزائري من الاستعمار اللغوي ، وتاريخياً كان الخطاب تدشيناً رائعاً مثيراً لضرورة التعريب الملحة في الجزائر ؛ فبالاضافة للموضوعات التي يعرضها المؤلف في هـــذه الفقرات نادى بن بلـّه من اعلى منبر الخطابة وبمشهد من رجال الفكرالثقافي الجزائري والفرنسي وبحضرعشرات من مراسلي الوكالات والصحف العالمية: « اقولها صريحة: لا اشتراكية في الجزائر بدون تعريب!» ويا كم اسالت هذه الجملة من مداد ! ويا كم فجرت في الصدور من حقد كمين ضد العربية ومتكلميها فانطلقت صحف الاستعمار الجديد في فرنسا تتنادى بالفضيحة ! وتصوب على بن بلـّه كل سبّابات اتهامها : « ديماغوجية » « عودة بالجزائر الى القرون الوسطى» « حرب على اللغة الفرنسية في←

من الواضح ان المستعمَر عندما يتعلم لغة اجنبية يتبنى قليلاً أو كثيراً أبنيتها الذهنية . انها عملية إثراء ، اذا كان يمتلك ويستعمل لغته القومية ؛ ولكن اذا كانت هذه لم تعد السند الاعتيادي لفكره ، واذا كان هذا الفكر مضطراً ، لكي يخرج الى وضح النهار ، الى المرور بلغة الغُزاة ، فانه من الطبيعي ان تصبح عملية إستلاب - Aliénation - لجوهر الانسان المستعمر .
ان هذا الاستلاب عند بعض المثقفين الجزائريين اصبح مقبولاً بل ومرغوباً فيه . انهم بريّاء Snobisme ، او بانتهازية ، او بانعدام التبصر السياسي ، او بالافتتان بالهيبة العالمية للغة الفرنسية ، يشعرون في أعماق نفوسهم ، وان لم يعترفوا بذلك ، بانهم فرنسيون اكثر منهم جزائريين . اما اللغة العربية فلا يشعرون تلقاءها الا بمشاعر الهجر والبعاد .

اعتقد ان موقفاً من هذا النوع بعيد الضرر ، لانه يتضمن عند المثقف

← جزائر بن بلّه » « التعصب العربي ينتصب ». اما الصحف الفرنسية التي تحركها خيوط من تل ابيب .. وتتستر تحت قشرة « يسارية » سريعة الزوال فقد ضربت على طبل جديد : اتهمت بن بلّه بـ « خيانة » الثورة الاشتراكية من اجل الاوهام القومية !..

وفي الجزائر ذاتها اثار هذا الخطاب جدالاً ، حول ضرورة التعريب ، وامكانياته ، ومتاعبه، استمر سنتين بدون انقطاع . ومن مساخر التاريخ انه وجد في الجزائر يومئذ بين المثقفين الجزائريين ممن يدافعون اليوم باوداج منتفخة عن « العروبة والاسلام » ويضعون بن بلّه في قفص الاتهام ، من تساءل بسخرية عن « علاقة التعريب بالاشتراكية » .

وكما كان بن بلّه هو الاشتراكي الحقيقي الاكثر حماساً وصدقاً بين كل اعضاء حكومته ، والاكثر حدباً واهتماماً بجماهير الشعب الفقيرة التي يحبها وتحبه ، فقد كان ايضاً النصير الذي لاتلين له قناة في ترسيخ دعوة التعريب في كل مجال وكانت مواقفه منها هي الحاسمة . وعندما اعتبر أول دستور جزائري العربية لغة البلاد الرسمية الوحيدة ـ وهذا الاختيار لم يكن لا سهلاً ولا بدون معارك ـ وجد من كان يقول ان « ديكتاتورية بن بلّه هي التي فرضت علينا العربية .. بدلاً من الفرنسية او على الاقل معها .»
ـ المترجم ـ

الجزائري الذي يقبل به نهجاً للتفسخ القومي سيكون خطيراً بامتداده ، بالتعليم الاجباري لكوادر المستقبل للدولة .

اما فيما يخص الجزائريين – وانا واحد منهم – الذين لا يقبلون بهذا الاستلاب ، فانهم يحسون في اعماق نفوسهم بالحرج العميق الذي ينتابهم عندما يعبرون عن الاشياء بالفرنسية ، بينما يشعرون بها بالعربية . وهكذا فان فراقاً دائماً بين الرأس والقلب ، بين الفكر والأحاسيس ، يمزق اعماق نفوسهم .

بالتأكيد سيكون جنوناً ان نعلن باسم قومية غير مهضومة ، الحرب على اللغة الفرنسية ، التي هي جسر ضروري جداً يصل النخبة الجزائرية بعلوم الغرب . بالعكس يجب ان نحافظ على البعد الفكري الذي وهبته لنا . لانه بعد ملك أيدينا ، ولكن في الوقت نفسه ينبغي علينا ان نستعيد البعد الفكري الذي ينقصنا : الاثراء الذي تحمله اللغة العربية للعرب الذين هم نحن . بيد انه يجب ان لا نكتم بان هذه مهمة طويلة النفس وخمسة عشر او عشرون عاماً قد تكون ضرورية للوفاء بها على اكمل الوجوه .

* * *

في فبراير – ١٩٦٣ – تمت عملية تجميع « ماسحي الأحذية الصغار » . اذا كان هناك مشهد قد وجدته على الدوام يرمز بقوة الى اذلال « لانديجان » من سكان البلدان المتخلّفة ، فهو هذه الأفواج العجاف والمتلفعة بالاسمال من الاطفال الجاثين عند أقدام رجال أصحاء يكلون اليهم تنظيف أحذيتهم القذرة . بالتأكيد ، لست انا الوحيد الذي وجد في هذه الواقمة فضيحة . اذ منذ تشكيل حكومتي كنت يومياً اتلقى رسائل من جزائريين – نساء

ورجالاً – يقولون فيها :« يا رئيسنا اننا نتألم من البؤس واننا جياع . ولكن بؤسنا الاعظم هو ان نرى هؤلاء الاطفال في الشوارع يمسحون احذية الاجانب واحياناً نعال الجزائريين . يا رئيسنا ان هذا لعار ، وانه لنيل من كرامتنا ، لا ينبغي ان نسمح به » .

اعلم جيداً ما عسى ان يجيب به على هذه الرسائل مُنَظّر Théoricien الاشتراكية : الحل الوحيد الصحيح لمشكل صِغار ماسحي الاحذية هو حل اقتصادي · بالقضاء على البطالة يتوقف استغلال الاطفال تلقائياً، لانه بالقضاء على السبب يزول المُسبَّب .

هذه هي الاجابة التقليدية Orthodoxe . وانها لصائبة أقتصاديا ولكنها إنسانياً ليست مقبولة ، لأن القضاء على السبب يقتضي اعواماً ، وطوال هذه الاعوام ، يواصل « صغار ماسحي الاحذية » الغرق حتى الاذقان في القذارة ، والأمراض ، والأمية والمهانـة . وكلما تأملت هـذه المسألة بدا لي مستحيلا التضحية ، في الحاضر ، بهذه الآلاف من الاطفال والاتكال على المستقبل لحل مشكلتهم .

ولهذا اضطررت الى ان أفعل ما يُدينه كل اقتصادي جيّد : فبدلاً من الهجوم على السبب قررت الهجوم على المسَبَّب . بحثت مـع بومعزة [1] في الوسائل التي يمكن ان نجنّدها لهذا المشروع . وتم الاتفاق على ان نجمعهم بقاعة ابن خلدون وبعد ان نشرح لهم ما سنفعله بهم ، نوزعهم على مراكز

---

(١) وزير الاقتصاد في حكومة بن بلّه وقد انضم لبومدين بعد انقلاب ١٩ جوان – ثم استقال اخيراً وأنضم لإحدى المعارضات السرية .

– روبير ميلر –

مختلفة لتثقيفهم . وهذه العملية التي قمنا بهـــا وسط حماس الشعب الجزائري الصاخب كـُلـّلـَت بنجاح عظيم .

لقد كان طبيعياً ان يكون بيننا اناس يجرؤون على التصريح بان هؤلاء الأطفال فقدوا ، بسبب سنيّ البؤس الطويلة والفوضى والقذارة ، القدرة على الدراسة . ولكن التشاؤم غالباً هو الحجاب الذي تختبىء وراءه الروح الرجعية. وانا لم اقتنع بهذه الطريقة في التفكير .

وباقتراح مني قام المدربون المنكوبون على « صغـــار ماسحي الاحذية » بتجربة أولى ، فانتخبوا من بين اذكى الاطفال اربعة سبق لهم في الماضي ان درسوا بعض الشيء ، ولكنهم اضطروا فـــيما بعد لترك الدراسة ، وخصّوهم بدروس سريعة وبعد ثلاثة شهور قدموهم لاجتياز فحص لدخول الى ثانوية Lycée ،وقُبِل الاربعة فيها . وقد شجعتهم هذه التجربة فانتخبوا في عَنّابه خمسين من ماسحي الاحذية الصغار ، وبعد شهرين نجحوا في الارتفاع بهم الى مستوى فحص الدخول للثانوية التيكنيكية . وهكذا تلقت نبوءات المتشائمين تفنيداً من الواقع .

بعد شهور شاهدنا من جديد بعض ماسحي الاحذية بحديقة بور سعيد [1] بالعاصمة · هذه المرة كانوا كباراً من ذوي العاهات ، والعُرْج والحُدب . وتركناهم ، موقتاً ، يمسحون على النعال ، في انتظار ان نهتم بهم في المستقبل . لانه لا سبيل في الجزائر الحرة للسماح لمهنة مُهِينة كهذه بان تعود للظهور .

---

(١) بمناسبة اول زيارة للرئيس جمال عبد الناصر للجزائر غداة استقلالها وتكريماً للمدينة البطلة بور سعيد وتخليداً لذكرى شهدائها الذين سقطوا برصاص متوحشي العصر الحديث في الغرب ، اطلق بن بلـّه على حديقة بروسون Bresson اسم مدينة بور سعيد الخالدة -المترجم-

اما الكُسالى والمتأنقون فعليهم ان يفعلوا مثلي : أن يشتروا فرشاة ويمسحوا احذيتهم بانفسهم ...

***

وفي نطاق حملتنا لتجميل المدينة كوّنـّا ايضاً مراكز لايواء العجز والشيوخ. وقد خصصنا للنساء مركز « لقمة الخبز » وللازواج الطاعنين في السن مركز سيدي موسى . وعندما تشكلت حكومتي كان يوجد مئات ومئات من الشيوخ والنساء الذين ينامون بالليل تحت حنايا العاصمة . وفي هـــذه الآونة كنت أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل . وقبل ان انام كان من عادتي ان اتجول، حوالي الساعة الواحدة او الثانية صباحاً ، بالمدينة لشم الهواء . وهناك كنت ارى من ساحة لاخرى اكواما انسانية جامدة ، ممـــددة في أسمالها . يكاد الناظر اليها في ظلال الحنايا الباهتة يحسبها امواتاً سقطوا في معركة الحياة . ومن أمسية لاخرى كان قلبي ينقبض لرؤيتهم يتكاثرون . لقد كان يوما جميلاً وسعيداً بالنسبة لي عندما اعطيت الامر بجمع هؤلاء الفقراء وتوزيعهم على الملاجىء التي كوناها والتي كانت في انتظارهم .

* * *

لقد قمنا بهذه العمليات ونحن نعرف تماماً اننا لم نضع بعـد ايدينا على ما هو جوهري .

وبكل بساطة كانت تتجاوب مع الاشواق العميقة للجماهير الجزائرية، هذه الجماهير التي بعد ان خرجت من ليل دام قرنا وثلاثين عاماً ، وبعـــد اعوام واعوام ذاقت فيها الاحتقار ضروباً والواناً ، كانت بحاجة لان تحس وترى

وتمس بالاصابع عناية السلطات الجزائرية بها . وكالطفــل الذي استفاق من كابوس والذي يطلب بان يُطمْأن ويُدلَّل ، كذلك الشعب الجزائري كان ينتظر حباً والتفاتاً من اول حكومة جزائرية للجزائر .

ولم أحس بهذه الروح بصورة افضل إلا خلال جولاتي . لقــد مررت بالسيارة ذات يوم بقرية صغـيرة ، وعندما رأيت الفلاحين منكبّين على بناء مسجـد ، قررت التوقف والنزول اليهم . وفوراً عرفوني . فالتفوا حولي . وشرعت أتحدث معهم . وفي هذه الاثناء تقدم مني أحدهم وكان شيخاً هرماً وقال لي :

– يا أحمد ! أخيراً زرتنا ! ولكنك تأخرت وقتاً طويلاً قبل أن تجيء لترانا ! لمــاذا تأخرت علينا طول هذه المدة ! عندك شهور وأنت رئيس وبقينا ننتظر .. وننتظر ! »

فقلت له :

– يا بَابَا ، الجزائر كبيرة ، فيها أكثر من ألف قرية كبيرة ، حتى اذا كنت أستطيع ان ازور منها ثلاث قرى كل يوم ، هــذا بشرط ان لا أفعل شيئاً آخر إلا الزيارات ، فانه يلزمني أكثر من عام لزيارتها . قل انت بنفسك كم يلزمني من الوقت لزيارة ٢٠٠٠ قرية صغيرة مثل قريتك ؟

فقال الشيخ : – نعم عندك الحق يا احمــد .. ولكننا انتظرناك .. وانتظرناك ..

وكانت الجموع المحيطة به تسانده .

رأيت ضرورة العمل بسرعة لأني كنت أحس نبض الجماهــير . وكنت اعمل عند الاقتضاء بوسائل غير تقليدية – او لنقل ببساطة بوسائل ثورية –

ضد التجاوزات . في شهر كانون الثاني وشباط ١٩٦٣ ، في شهر الصيام ، ارتفعت أسعار الفواكه واللحوم ارتفاعاً فاحشاً . وقمت بتحقيق فتبيّن لي بأن هذا الغلاء الفاحش الرهيب كان من تدبير اشخاص يملكون في الاقتصاد الرأسمالي سلطة تعلو سلطة رئيس جمهورية. وبمكرهم يستطيعون تقدير الفشل لأكثر الأجهزة الحكومية فعالية : اقصد تجار الجملة بالسوق المركزية .

لقد مرّت الحرب والثورة والاستقلال جميعها على هؤلاء السادة في العاصمة دون ان تترك فيهم اثراً . وبسبب انهم يزودون المنتجين بالنقود لغرس هذه الخضرة او تلك ، فانهم يصبحون أسياد الموسم الذي غدا سلفاً رهينة لقروضهم . وقد مكنهم هذا من اللعب بالأسعار على هواهم وهم جالسون أمام تلفوناتهم . انهم يأخذون سماعة الهاتف ويأمرون المنتجين : « اليوم لا تنزلوا الطماطم الى السوق » . وتصبح الطماطم نادرة ، فتصعد اسعارها ، حتى تصل الى المستوى المرغوب ، وعندئذ يرفع تجار الجملة من جديد الموانع.

ويحصلون على نفس النتيجة بأجراء آخر اكثر بساطة : « الإيداع » ؛بدلاً من توزيع الخضرة على السوق ، فانهم يخزنونها . وذات يوم نزلت بنفسي الى السوق واستدعيتهم لأقول لهم :

– يقال ان البصل لم يعد له وجود في السوق . ولكني منذ قليل رأيت منه كمية في مخازنكم .

فأجابوني ، وابتسامة لباقة على الشفاه :

– سيدي الرئيس اننا لا نستطيع ان نمد أيدينا اليها ، انها في الإيداع .

قلت : الإيداع ؟ وماذا يعني هذا ؟

– هذا يعني سيدي الرئيس ان البضاعة تمّ بيعها .

وفوراً لوّحوا لي بقائمات مستوفية الشروط وموقعة من أناس يحترفون اعارة اسمائهم .

فقلت : « حسناً جداً ، إنكم في حدود القانون » .

وذهبت . وكانوا يشاهدونني اذهب وهم يبتسمون .

ولكن في اليوم التالي ، اختفى ابتسامهم عندما رأوني أعود على رأس ألفي طفل . ودللت الاطفال على الايداع الشهير وقلت لهم :

– تقدموا اليه ، اليوم كلّ هذا بالمجان . ان من لا يموّن عائلته هذا اليوم لا يستطيع ان يمونها ابداً » .

وانطلق الأطفال افواجاً الى المخازن ، وفي كل مكان مروّا منه لم يدعوا بصلة واحدة ... وعندما قفلت راجعاً قلت لهؤلاء السادة :

– سأعود غداً على رأس اربعة الآف طفل .

ولكن ذلك لم يعد ضرورياً . لانهم أدركوا ان لعبة الايداع النبيلة لم تعد تروج في الجزائر الجديدة .

كما كانت تصرفات تجار الجملة في الخضروات كانت ايضاً تصرفات بائعي اللحوم بالجملة . ولكن هؤلاء كانوا اشد مراساً . ففشلت معهم كل الوسائل إلا وسيلة واحدة هي القوة . لقد كان علينا ان نضعهم جميعاً في السجن . نعم . اقول جميعاً . لانهم اقوياء بملياراتهم التي حصلوا عليها من الحرام ، ولانهم يتمتعون بمساندات ومشاركات لا حصر لها ، ولانهم حتى ذلك الوقت كانوا متأكدين من ان يد القانون لا تمتد اليهم .

وقد دهش تجار اللحوم بالجملة كيف أعاملهم على هذا النحو . وزارني احد

زعماء الوطنية [1] « المعتدلة » وكان مغتاظاً فقال لي :

- كيف تضع هدروق في السجن ؟ انه رجل طيب كثيراً ، وأكثر من ذلك انه صديقي ...

- نعم . كنت اعرف بالتأكيد ان هدروق كان صديقه و « أكثر من ذلك » كان صديقاً كريماً لانه قدم اليه الفيلا التي كان يسكن فيها .. وقد صرفت بأدب مخاطبي وظل هدروق في السجن ...

* * *

منذ زمان طويل وانا مهموم بمصير الفلاحين . اثناء شهر الصيام كنت أجوب سهل المتيجه ، وكان قلبي ينقبض من رؤية المساكن البائسة من القش والطين قائمة بجانب فيلات رائعة يسكنها الكولون . وقد توقفت أمام احد هذه الاكواخ ولمحت رجلاً متقدماً في السن فقلت له :

- كيف حالك يا أبي ؟

عرفني فقام وأمسكني من يدي وقال :

- كيف تكون حالتي حسنة بينما الكولون (وانطلق يشتمه) يُسكننا انا وعائلتي في مسكن لا يُسكن فيه حتى مواشيه ! تعـــال يا ابني تعال أريك الدار التي أعطاني اياها .

وفي الواقع كانت شيئاً رهيباً : غرفة صغيرة وضيقة ، وسقفها مثقوب . وآثار قطرات المطر مرتسمة على طول الجدار .

وقال لي الرجل :

---

(١) ربما كان هذا الزعيم هو فرحات عباس . - المترجم -

– منذ اربعين عاماً وأنا أسكن هنا . كان عندي سبعة اطفال : ماتوا كلهم بمرض السل . وهذا هو الثامن .

وفي زاوية من الغرفة كانت زوجته جالسة على الأرض في ذراعيها طفل هزيل . خرجت من الغرفة مزلزل الكيان وقلت له :

– اين هو معلمك ؟

– انه في فرنسا .

– وأين هو نائبه ؟

– في بوفاريك .

– اصعد في السيارة معي فسأتحدث معه في الموضوع

وفي بوفاريك على بعد ١٧ كلم من المكان وجدت النائب جالساً في المقهى يتناول مقدمات الأكل مع الكحول وفوراً اخرجته وقلت له :

– استمعوا الي ! لن اعطيكم درساً في الاخلاق . لان الاخلاق معكم لا تجدي نفعاً . ولكني سأقول لكم ما يلي : « اذا لم يُعطَ هذا الشيخ مسكناً افضل في بحر شهرين فاني سأشتغل بكم » .

ثم أدرت عقبي ، وأعدت الشيخ الى منزله .

هذه الواقعة جعلتني المس لمس اليد الوضعية الرهيبة والغريبة التي كانت تسود في الجزائر في تلك اللحظة : ان السلطة السياسية كانت بايدي الجزائريين ؛ ولكن كل السلطة الاقتصادية – الارض نفسها – كانت ما زالت بايدي الاوروبيين . كان هؤلاء مازالوا محتفظين بمزارعهم العظيمة يواصلون كما كانوا في الماضي استغلال الفلاح . لقد كان واضحاً ان ابسط مبادىء العدل لا تقر بمثل هذا الوضع ، وأن كلمتي « الاستقلال » و « الثورة » لن يكون

لهما اي مضمون ، وأن منهاج طرابلس المرحلي يبقى حبراً على ورق ، اذا ظلت الارض الجزائرية ملكاً لكبار الملاكين العقاريين فرنسيين او جزائريين .

في مارس ١٩٦٣ أصدرت حكومتي قرارات مارس التي أممت الجزء الاعظم من الملكيات العقارية . كنا نخشى ان تكون هذه الملكيات هدفاً لتخريب المُلاّك المجردين منها — اذ عند إبرام اتفاقيات افيان عمد بعض الكولون ، قبل رحيلهم ، الى حرق محاصيلهم ، وابادة مدخراتهم ، وتخريب آلاتهم — ولهذا قررنا ان نستولي على الأرض قبل اصدار القانون . وفي شروط تنظيم وسرّية رائعة طوق جيش التحرير الوطني المزارع الكبرى واحتلها وأنذر مالكيها بمغادرتها . وهكذا أممت « لاتراب » [١] الشهيرة التي كان يملكها بورجو . . والاملاك الاخرى التي كانت في تصرف جرمان . . افيرسانك . . غروشان . . . فور . .

لقد انفجرت الافراح في طول البلاد وعرضها . ويجب ان اقول اني لم أشعر أبداً بأني سعيد كما في هذه المرة . . إن الارض تعود للذين يكدحون فيها . والجزائر تمشي خطوة حاسمة في طريق الاشتراكية . كانت هناك ردود فعل من طرف الحكومة الفرنسية ، وكانت جد عنيفة ، ولكنها لم تصل الى حد اندلاع أزمة حقيقية بين الدولتين .

اما بورجو — الذي كان اسمه يبدو للشعب الجزائري كرمز للاستعمار

---

(١) من اعظم واغنى المزارع في الجزائر . كانت تسمى La-Trappe وبعد التأميم ودمجها في قطاع التسيير الذاتي أطلق عليها اسم « ضيعة عمار بوشاوية » وهو اسم احد عمالها الذي استشهد في الثورة . ولا تزال عائلته تعمل فيها حتى الآن . —المترجم—

الفرنسي - فقـد قابل - كما قيل لي - « بالاندهاش العظيم » الاجراء الذي أصابه ، وفوراً ارتحل الى فرنسا حيث كان ينتظره ، فيما اعتقد، رفاه عتيد، وبعد رحيله زرت « لاتراب » فوجدتها - بما في ذلك الشعـــار[1] الشهير - جد مدهشة وجد فريدة ، فقررت ان لا يغير فيها عن مكانه لا أثاث ، ولا كتاب ، ولا صورة ، ونيتي هي الاحتفاظ بقصر بورجو على الحالة التي تركه عليها ، وجعله متحفاً لنُظهر به لأجيال المستقبل في الجزائر كيف كان يعيش كبار الاقطاعيين الذين كنا عبيداً لديهم.

* * *

لم نؤمم كل شيء ، وكل يوم كنت أتلقى مئات الرسائل التي تلفت انتباهي للمزارع التي نسيناها . وذات يوم بينما كنت ماراً غير بعيد من مغنية ، بقرية تدعى عين عيّنه ، اذكر ان سيارتي ما كادت تنجح في التخلص من الجموع ، حتى أبصرت رجلاً في الأربعين يركض بجانب السيارة ويلوح بورقة صارخاً . كانت سرعة ركضه جنونية حتى كاد يدرك السيارة . واثناء ركضه لم ينفك يظهر لي الورقة ويصرخ بشيء لم أتـبَيَّنه . طلبت الى السائق ان يكـبَح السيارة قليلاً ، وأنزلت زجاج النافذة ، واستفسرته بحركة وديّة من يدي ، واخـــيراً نجحت في سماع ما كان يقول . لقد كان يصرخ بكل قواه : « غروسي ! غروسي » Grosset . Grosset « ولكني لم افهم شيئاً جديداً، ولم يستطيع احد ممن كانوا حولي ان يشرح لي .

وفي المساء طرحت السؤال على والي المنطقة ، فأخذ في الضحك :

- إفون غروسي ، احد كبار الملاك العقاريين بالقرية . وصاحبك كان

---

(١) « بالسيف والصليب والمحراث » شعار الاقطاعيه الاستعمارية . -روبير ميرل-

يريد ان يقول لك بأن مزرعته لم تؤمّم بعد .

وسألته :

- هل هي مزرعة كبيرة ؟

- اربعمائة هكتار من أجود الارض .

قلت له :

- إسمع انها فضيحة ، أممّها ابتداء من الغد .

ثم فكرت في الذي كان يركض ورائي في الصباح ، وانشرحت أساريري عندما فكرت في الفرحة التي سيحسّ بها من قراري : ان مئة متر من الركض لم تلق يوماً جزاءً أفضل ..

اذكر عرَضاً ، ان غروسي كان مُلاعبي في تلمسان . ولعبت في كرة القدم ضده ، واحتفظت له كانسان بذكرى ممتازة . ولكنه كان طبيعياً ان يلقى نفس المصير المشترك . لم اكن استطيع ان استثني مالكاً عقارياً كبيراً اوروبياً كان او جزائرياً .

ذلك انه كان ثمة خطر عظيم : ان يحلّ الجزائريون الاكثر غنى محل الملاك الفرنسيين ويشكلوا بعدهم بورجوازية أهلية تبقي الجماهير الكادحة غارقة في بؤسها

بعد توقيع اتفاقيات افيان انتقلت بعض الملكيات ، سواء بالمدن او بالارياف ، من ايدي الاوروبيين الى أيدي رجال المال اجزائريين الذين اشتروها بثمن بخس وانطلقوا يستغلونها بشراهة كانت مساوية على الأقل لشراهة أسلافهم . وفي الاشهر التالية لقررات مارس اضطرت حكومتي لا فقط الى تأميم المزارع بل ايضاً الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهي [1] ، والدور

---

(١) تأميم المؤسسات التجارية الكبيرة التي تهافتت على تملكها ، رغم تحذير جيش التحرير ←

التجارية التي انتقلت ، ملكيتها حديثاً للجزائريين .

هذه الاستثمارات والمؤسسات الاقتصادية التي أممناها ، لم نفكر في لحظة ما ان نَكِلَ للدولة امر تسييرها ، كما لو كانت املاك دولة . بل ان العمال انفسهم * الذين يجب ان ينتخبوا كوادرهم ويسيروها بأنفسهم . وهكذا تكف الديموقراطية عن ان تكون في ساحات الخطابة مجرد لعب سياسي صوري يحرك خيوطه طواغيت المال ؛ وتُنصَّبُ الديموقراطية في المكان الجدير بها : في القاعدة، على امكنة العمل ، وفي العلاقات الملموسة بين الشغيل والانتاج ، وفي التوزيع العادل للارباح ، وعندئذ فالدولة لا تتدخل في عملية الانتاج الا بصفة المستشار او المنظم او المفوض Commanditaire .

حتى لو كان التسيير الذاتي قد وجد في فرنسا ، وهي بلد بلغ درجة عاليه من التطور الاقتصادي ، فانه كان من الممكن ان يطرح مشاكل ، لان التجربة تبرهن على ان الانتقال من الاقتصاد الرأسمالي الى الاقتصاد الاشتراكي لا يتم بسهولة . وفي بلد متخلف كالجزائر فذلك يطرح مشاكل اكثر

←الوطني ، البورجوازية الجزائرية كان اجراءاً منطقياً وثورياً. بالاخص وهذا التوارث تم احياناً عن طريق عقود صورية او صفقات مشبوهة . الا انه كان من الخطأ تأميم بعض المؤسسات التجارية الصغيرة التي بالاضافة الى الدعاية المحبوكة من البورجوازية الكبيرة التي قرعت لجماهير البورجوازية الصغيرة ناقوس « الخطر » الاشتراكي . وقد فطنت السلطة الثورية الى هذا الخطأ . وفوراً طلب بن بله من وزير الداخلية دراسة الموضوع ورد الاملاك الصغيرة المؤممة ، خطأ ، الى اصحابها . ولكن هذا الاخير ظل اكثر من عام يتلدد ويماطل . ولم تعد بعض المتاجر الصغيرة الى اربابها الا بعد ان استقال . ومن الجدير بالذكر ان وزير الداخلية الحالي - وهو نفسه بالامس - كان في طليعة المبادرين الى انتزاع المزارع الواسعة من عمال التسيير الذاتي وردها ، ورد الاعتبار معها ، الى الاقطاعيين الخونة . - المترجم -

عسراً ، لان عدم الكفاية أو الكيفية والكمية للكوادر تصل الى حدود المأساة والروح الفردية وحتى الفوضوية شديدة الانتشار ، والمواقف «الاقطاعية» كثيراً ما يتبناها بسهولة رؤساء المؤسسات الاقتصادية حتى عندما يكونون منتخبين . لقد حصلت اخطاء ، وتجاوزات ، ومحاولات لتلمس الطريق ، وفي بعض الحالات ، اخفاقات خطيرة ، وقد لزمنا على ضوء التجارب ان ننقح طريقتنا في النظرة الى الاشياء وان نصحح مفاهيمنا .

ولكن في نهاية عام من ممارسة التسيير الذاتي ، ورغم جدل الصحافة الغربية التي كانت تتتبع تجربتنا بقصد مبيت هو المناداة بافلاسها عند لقاء اول صعوبة — فان الحصيلة كانت إيجابية. لقد طرح علينا مشكلة ماذا يجب ان نصنع بارباح المؤسسات المسيرة ذاتياً ؟ اصدقاؤنا في الاتحاد العام للعمال الجزائريين كانوا يرون ان هذه الارباح كان يجب ان تدفع لصندوق خاص مرصود للقضاء على البطالة [1] .

---

(١) عندما اثيرت قضية اعطاء او عدم اعطاء عمال القطاع الاشتراكي والصناعي نصيبهم من الارباح ، التي شغلت الصحافة الوطنية والرأي العام اكثر من ثلاثة شهور ؛ كنت وقتها من المشرفين على « الثورة والعمل » لسان الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، وبهذه الصفة كنت اعرف ان قيادة الاتحاد - وهي بيروقراطية متعفنة لم تكن تتمتع باي دعم من قاعدة الطبقة الشغيلة الجزائرية - رفعت هذا الشعار الديماغوجي : حرمان الشغيلة والعمال الزراعيين من الحافز المادي بذريعة ضرورة « التقشف » والزهد لمقاصد أخرى غير التي كانت تعلن عنها ، وفي الواقع كانت كل الادلة تتضافر على ان هذه البادرة الماكرة لم تكن صادرة منها ، بل اوحت لها بها دوائر رجعية جزائرية وربما اجنبية ايضاً لقصد معاداة الثورة. وما زلت اذكر ان الذي صاغ بلاغ قيادة الاتحاد الذي تهجم بعبارات وقحة وحاقدة على اليسار الجزائري في شخص محمد حربي - مدير الأسبوعية الثورة الافريقية La Revolution Africaine التي كانت مع الجزائر الجمهورية Alger républicain تتبنى وجهة النظر الاخرى : الابقاء على الحافز المادي كعامل هام

ولكني لم اجد ، لا على صعيد الانصاف ولا على صعيد الانسانية ، هـذا الحل سعيداً وتوصلت الى اقناع اصدقائنا بذلك . لأن الفلاح الذي يقبض من عمله في المزرعة ٧٥٠ فرنكاً قديمة يومياً ، يدفع منها جزءاً ، وجزءاً هاماً ، (٢٣ ٪) لصندوق التضامن الوطـني . فكيف ، والحالة هـــذه ، نطلب منه عندمـــا تضبط الحصيله السنوية مساعدة مالية اضافية لا نطلبها مثلا من الموظف ؟ ومن جهـــة أخرى كان يبدو لي ضرورياً تمامـــاً ان يشعر الفلاح انه لم يعد ذلك الاجير الذي كان ، بل هو الآن منتج ، يمس بيديـــه ارتفاع منزلته الاجتماعية بقبضه ، في شكل قسط سنوي ، جزءاً من الارباح التي حققتها وحدته الانتاجية .

لا ازعم ان التسيير الذاتي كما هو مطبق حالياً في الجزائر لم يعد في حاجة الى مزيد من الكمال . وانما يجب التمييز بين النقد الذي مصدره حسن النية والذي يكتب او يقال بقصد تحسنه ، والنقد الهدام الحاقد ، والمتشائم بغير

←ـــلتحسين حياة العمال وتحميسهم لكسب معركة الانتاج-كان شخصاً ليست لهاي صفةنقابية ، وكان بوضعه المادي والمرتبي والفكري غريباً عن الطبقة الشغيلة بل وعدوا لها . واكثر من هذا كان عضواً فعالاً في حزب رجعي معاد للثورة وعميـل : جمعية القيم الاسلامية ، التي تسترشد بتوجيهات سعيد رمضان رئيس المركز الاسلامي بجنيف .

وعرضاً أذكر ان قيادة الاتحاد التي كانت توصي العمال بالزهد والحرمان ، كانت هي ـ وكنا نرى ذلك يومياً ـ وكما اظهره المؤتمر الوطني الثاني فيما بعد ، تبذر اموال ومكاسب الاتحـاد ذات اليمين وذات الشمال .

وكانت الرجعية تهدف ، فيما تهدف اليه ، من حرمان المنتجين من نصيبهـــم في الارباح ، الى تفتير حماسهم وتشكيكهم بجدوى التسيير الذاتي وقدرة الحل الاشتراكي على التحسين النسبي السريع لوضعهم المادي الاسوأ . كما كانت تريد من وراء عدم اعادة المكاسب الصغيرة التي أممت خطأ تنفير جماهير البورجوازية الصغيرة من الثورة الاشتراكية ، وتقديمها للمستفيدين الاساسيين منها ، وحلفائهم : عمال المدن والارياف وجماهير صغار الكسبة كنذير تفقير ونهب. -المترجم-

استثناء الذي نسمعه من بعض الأوساط الجزائرية، وهو يستهدف ، من خلال النواقص والتجاوزات ، نفس مبدأ تسيير مكاسب الأمة من طرف الشعب.

في الواقع يبدو واضحاً ان البورجوازية الجزائرية ترى في التسيير الذاتي « ربحاً ضاع من يديها » ونهاية للمنظورات اللذيذة التي داعبتها بكل وقاحة إثر رحيل الفرنسيين ، بعد ان كسب الشعب ، والشعب وحــده ، حرب الاستقلال فان الأمر بالنسبة لبورجوازية هذه البلاد لم يكن شيئاً آخر غير انتعال أحذية الاوروبيين والانفراد بإرث ثرواتهم، وترك الجماهير في بؤسها .

لقد احبطت هذه النيات وسأبقى في المستقبل على حذر ، ولم يغرب عني ان تحقير التسيير الذاتي لا يكشف شيئاً آخر غير طموح الأغنياء الجزائريين المكتوم للعودة لنظــام الاقتصاد الرأسمالي وارباحه الظالمة . واذا توصلوا لتحقيق هذا الطموح فسيكون ذلك نهــاية الاشتراكية في الجزائر وبالنتيجة نهاية استقلال الامة ، وايضاً نهاية الآمال التي عقدها الشعب المتألم على الثورة لتحسين مصيره .

ان من يلحق الاضرار بالتسيير الذاتي – مباشرة او من وراء ستار ، علناً او خفية – انما ينتهك حقوق الجماهير الاساسية ، ويمكر بهــا ويخدعها ويطعنها بالخناجر . اما انا فما بقيت على قيد الحياة وما بقيت عندي بقية قوة فلن اترك شخصاً في الجزائر يمس أثمن مكاسب الثورة : التسيير الذاتي .

الفهرس

صفحة